تفسير الطبري

من كتابه

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه

الدكتور بشار عواد معروف   عصام فارس الحرستاني

المجلد الرابع

الأنفال إلى النحل

مؤسسة الرسالة




تفسير الطبري
٤

الطّبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م



مؤسّسة الرّسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف : ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب : ٧٤٦٠ - برقياً : بيوشران



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ

اختلف أهلُ التأويل في معنى «الأنفال» التي ذكرها الله في هذا الموضع.

فقال بعضهم: هي الغنائمُ، وقالوا: معنى الكلام: يسأَلُكَ أصحابُكَ، يا محمدُ، عن الغنائمِ التي غنمتها أنتَ وأصحابُكَ يومَ بَدْرٍ، لمن هيَ؟ فقل: هي للهِ ولرسولِه.

وقال آخرون: هي أنفالُ السرايا.

وقال آخرون: «الأنفال»، ما شَذَّ من المشركينَ إلى المسلمينَ، من عَبْدٍ أو دابةٍ، وما أشبهَ ذلك.

وقال آخرون: «النفل»، الخُمس الذي جعلَهُ الله لأهلِ الخُمُس.

وأولى هذه الأقوالِ بالصوابِ في معنى: «الأنفال»، قولُ مَنْ قال: هي زياداتٌ يَزيدها الإمامُ بعضَ الجيشِ أو جَميعَهُمْ، إمَّا من سَهْمِه على حقوقِهم من القسمةِ، وإمَّا مما وصلَ إليه بالنفلِ أو ببعضِ أسبابه، ترغيباً له، وتحريضاً لِمَنْ معهُ من جيشهِ على ما فيه صلاحُهم وصلاحُ المسلمينَ، أو صلاحُ أحدِ الفريقين. وقد يدخلُ في ذلك الفَرَسُ والدِّرْعُ ونحو ذلك، ويدخلُ فيه ما عادَ من المشركين إلى المسلمين من عبدٍ أو فَرَسٍ، لأنَّ ذلك أمرُه إلى الإمامِ، إذا لم يكن ما وصلوا إليه بغَلَبَةٍ وقَهْرٍ، يفعلُ ما فيه صلاحُ أهلِ الإسلام، وقد يدخلُ فيه ما غلب عليه الجيش بقَهر.

وإنما قلنا ذلك أوْلى الأقوالِ بالصواب، لأنَّ «النفل» في كلام العرب، إنما هو الزيادةُ على الشيء، يقال منه: «نفَّلتُكَ كذا» و«أنفلتك»، إذا زِدْتُكَ.

فإذْ كان معناه ما ذَكَرْنَا، فَكُلُّ مَنْ زِيدَ من مقاتلةِ الجيشِ على سهمه من الغنيمةِ - إنْ كان ذلك لبلاءٍ أبلاهُ، أو لغَنَاءٍ كان منه عن المسلمين - بتنفيلِ الوالي ذلك إيَّاهُ، فيصير حُكْمُ ذلكَ له كالسَّلبِ الذي يسلبه القاتل، فهو منفل ما زِيدَ من ذلك، لأنَّ الزيادةَ نَفَلٌ، والنَّفَلُ، وإنْ كان مُسْتَوْجِبهُ في بعضِ الأحوالِ لحق، ليس هو من الغنيمةِ التي تقعُ فيها القسمة. وكذلك كُلُّ ما رُضِخَ لمن لا سهمَ له في الغنيمة، فهو «نفل»، لأنه وإنْ كان مغلوباً عليه، فليس مما وقعتْ عليه القسمةُ.

فالفصل - إذا كانَ الأمرُ على ما وَصَفْنَا - بين «الغنيمة» و«النفل»، أنَّ «الغنيمة»، هي ما أفاءَ الله على المسلمينَ من أموالِ المشركينَ بغلبةٍ وقهرٍ، نَفَّلَ منه مُنَفَّلٌ أو لم ينفل، و«النفل» هو ما أُعطيه المرءُ على البلاءِ والغَنَاء عن الجيشِ على غيرِ قسمةٍ.

وإذْ كان ذلك معنى «النفل»، فتأويلُ الكلام: يسألُكَ أصحابُكَ، يا محمدُ، عن الفضلِ من المالِ الذي تقعُ فيه القسمةُ من غنيمةِ كفارِ قريش الذين قُتِلُوا ببدر، لِمَنْ هُوَ؟ قُلْ لهم يا محمدُ: هو للهِ ولرسولِه دونَكم، يجعلُه حيثُ شاء.

واختلف في السبب الذي من أجله نزلتْ هذه الآيةُ.

فقال بعضهم: نزلت في غنائمِ بدر، لأنَّ النبيَّ ﷺ كانَ نفَّلَ أقواماً على بلاءٍ، فأبلى أقوامٌ، وتَخَلَّفَ آخرونَ مع رسولِ الله ﷺ، فاختلفوا فيها بعد انقضاءِ الحربِ، فأنزلَ الله هذه الآيةَ على رسوله، يعلمهم أنَّ ما فعلَ فيها رسولُ الله ﷺ فماضٍ جائزٌ.

وقال آخرون: بَلْ إنما أُنْزِلتْ هذه الآيةُ، لأنَّ بعضَ أصحابِ رسولِ الله

ﷺ سألـه من المَغْنَمِ شيئـاً قبلَ قسمتها، فلم يُعْطِه إياهُ، إذْ كان شِرْكاً بين الجيش، فجعلَ اللهُ جميعَ ذلك لرسولِهِ ﷺ.

وقال آخرون: بل نزلت: لأنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ سألوا قِسْمَةَ الغنيمةِ بينهم يومَ بدر، فأعلمهم اللهُ أنَّ ذلك للهِ ولرسولِهِ دونَهم، ليس لهم فيه شيء. وقالوا: معنى «عن» في هذا الموضع «من»، وإنما معنى الكلام: يسألونك منَ الأنفال. وقالوا: قد كان ابنُ مسعود يقرأه: ﴿يَسْأَلُونَكَ الأَنْفَالَ﴾، على هذا التأويل.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى أخبرَ في هذه الآية عن قومٍ سألوا رَسولَ الله ﷺ الأنفالَ أنْ يُعْطِيهُمُوهَا، فأخبرَهم اللهُ أنها لله، وأنه جعلها لرسولِه.

وإذا كان ذلـك معنـاه، جاز أنْ يكـونَ نزولُها كانَ من أجلِ اختلافِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ فيها ـ وجائزٌ أنْ يكونَ كان من أجلِ مسألةِ مَنْ سأله السيفَ الذي ذُكِرَ عن سعدٍ[1] أنه سألَهُ إياهُ ـ وجائز أنْ يكونَ من أجل مسألة مَنْ سأله قَسْمَ ذلك بين الجيش.

واختلفوا فيها أمنسوخةٌ هي أم غير منسوخة؟

فقال بعضهم: هي منسوخة. وقالوا نَسَخَها قولُه: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]، الآية.

وقال آخرون: هي مُحْكَمَةٌ، وليست منسوخةً. وإنما معنى ذلك: «قُلِ

---

(١) يعني: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فقد سأل رسول الله ﷺ أن ينفله سيف سعيد بن العاص بن أمية يوم بدر. رواه الطبري من عدة طرق (١٥٦٥٦-١٥٦٥٩) و(١٥٦٦٢-١٥٦٦٤)، وهو صحيح الإسناد في أكثر طرقه.

الأنفالُ لله»، وهي لاشَكَّ للهِ مع الدنيا بما فيها والآخرة ـ وللرسول، يَضَعُهَا في مواضِعِها التي أَمَرَهُ اللهُ بوضعها فيه.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّ الله جَلَّ ثناؤهُ أخبر أنه جعلَ الأنفالَ لنبيهِ ﷺ، يُنفِّلُ مَنْ شاء، فَنَفَّلَ القاتل السَّلَب وجعلَ للجيشِ في البَدْأة[1] الربع، وفي الرجعة الثلث بعد الخمس. ونفَّل قوماً بعد سُهْمَانهم بعيراً بعيراً في بعضِ المغازي. فجعل اللهُ تعالى ذِكْرُه حُكْمَ الأنفالِ إلى نبيهِ ﷺ، يُنَفِّلُ على ما يرى مما فيه صلاحُ المسلمين. وعلى مَنْ بَعْدَهُ من الأئمةِ أنْ يَسْتَنُّوا بسُنَّتِه في ذلك.

وليس في الآية دليلٌ على أنَّ حُكْمَها منسوخٌ، لاحتمالها ما ذكرتُ من المعنى الذي وصفتُ. وغير جائزٍ أنْ يحكم بحكم قد نزل به القرآنُ أنه منسوخٌ، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها، فقد دَلَّلْنَا في غيرِ موضع من كتبنا على أنْ لا منسوخَ إلَّا ما أَبْطَلَ حُكْمَه حادثُ حُكْم بخلافِه، يَنْفِيه من كُلِّ معانيهِ، أو يأتي خبرٌ يُوجِبُ الحجةَ أنَّ أحَدَهُما ناسخُ الآخرَ.

وقد ذُكِرَ عن سعيد بن المسيب: أنه كان يُنْكِرُ أنْ يكونَ التنفيلُ لأحدٍ بعدَ رسولِ الله ﷺ، تأويلاً منه لقولِ الله تعالى: «قُلِ الأنفال لله والرسول».

وقد بيَّنَّا أنَّ للأئمةِ أنْ يتأسَّوْا برسولِ الله ﷺ في مغازِيهم بفعلِه، فينفِّلُوا على نحوِ ما كانَ ينفلُ، إذا كان التنفيل صلاحاً للمسلمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾

---

(١) البدأة: ابتداء سفر الغزو، والرجعة: القُفولُ منه.

يقول تعالى ذِكْرُه: فخافُوا الله، أيها القومُ، واتقوهُ بطاعتِه واجتنابِ معاصيه، وأصلحوا الحالَ بينكم.

واختلف أهلُ التأويلِ في الذي عَنَى بقوله: «وأصلحوا ذاتَ بينِكُم».

فقال بعضهم: هو أمرٌ من الله الذين غَنِمُوا الغنيمةَ يومَ بدر، وشهدوا الوقعةَ مع رسولِ الله ﷺ إذ اختلفوا في الغنيمة: أنْ يردَّ ما أصابوا منها بعضُهم على بعض.

وقال آخرون: هذا تحريجٌ من اللهِ على القومِ، ونهيٌ لهم عن الاختلافِ فيما اختلفوا فيه من أمرِ الغنيمةِ وغيره.

وأما قوله: «وأطيعوا الله ورسولَهُ»، فإنَّ معناه: وانتهوا، أيها القومُ الطالبونَ الأنفالَ، إلى أمرِ الله وأمرِ رسولِه فيما أفاءَ اللهُ عليكم، فقد بَيَّنَ لكم وُجُوهَهُ وسُبُلَهُ. «إنْ كنتم مؤمنين»، يقول: إنْ كنتم مصدقينَ رسولَ الله فيما آتاكم من عندِ ربِّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ليس المؤمنُ بالذي يخالفُ اللهَ ورسولَهُ، ويتركُ اتباعَ ما أنزلَهُ إليه في كتابِهِ من حدودِه وفرائضِه، والانقياد لحكمه، ولكنَّ المؤمنَ هو الذي إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِل قلبُه، وانقادَ لأمره، وخضعَ لذِكْرِه، خوفاً منه، وفَرَقاً من عقابِه، وإذا قُرِئَتْ عليه آياتُ كتابِه صَدَّقَ بها، وأيقنَ أنها من عندِ الله، فازدادَ بتصديقه بذلك، إلى تصديقِه بما كان قد بلغه منه قَبْلَ ذلك، تصديقاً. وذلك

هو زيادة ما تُليَ عليهم من آياتِ الله إيَّاهم إيمـاناً. «وعلى رَبِّهم يتوكلون»، يقولُ: وباللهِ يُوقِنُونَ، في أنَّ قَضاءَهُ فيهم ماضٍ، فلا يَرْجُونَ غيره، ولا يَرْهَبُونَ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذين يؤدُّونَ الصلاةَ المفروضةَ بحدودها، ويُنفقونَ مما رَزَقهمُ اللهُ من الأموالِ فيما أمرهم اللهُ أنْ يُنفِقُوها فيه، من زكاةٍ وجهادٍ وحَجٍّ وعمرة، على مَنْ تَجبُ عليهم نفقته، فيؤدُّونَ حقوقهم. «أولئك»، يقول: هؤلاءِ الذينَ يفعلونَ هذه الأفعالَ. «هُمُ المؤمنونَ»، لا الذينَ يقولونَ بألسنتهم: «قَدْ آمَنَّا»، وقلوبهم منطويةٌ على خِلافِه نفاقاً، لا يُقيمونَ صلاةً، ولا يؤدُّون زكاةً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «لهم درجاتٌ»، لهؤلاءِ المؤمنينَ الذين وَصَفَ جَلَّ ثناؤُهُ صِفَتَهُمْ. «درجاتٌ»، وهي مراتبُ رفيعة.

وقـولـه: «ومغفـرة»، يقول: وعَفْوٌ عن ذُنوبهم، وتغطيةٌ عليها. «ورزقٌ كريم»، قِيلَ: الجنة. وهو عندي: ما أَعَدَّ اللهُ في الجنة لهم من مزيدِ المآكلِ والمشاربِ وهنيءِ العيش.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ

﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾

اختلف أهلُ التأويل في الجالب لهذه «الكاف» التي في قوله: «كما أخرجكَ»، وما الذي شُبِّه بإخراج اللهِ نَبِيَّهُ ﷺ من بيتهِ بالحق.

فقال بعضهم: شُبِّه به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم رَبَّهم، وإصلاحهم ذاتَ بَيْنِهم، وطاعتهم اللهَ ورسولَهُ. وقالوا: معنى ذلك: يقولُ الله: وأصلِحُوا ذاتَ بينِكم، فإنَّ ذلك خيرٌ لكم، كما أخرجَ اللهُ محمداً ﷺ من بيتهِ بالحقِّ، فكان خيراً له.

وقال آخرون: معنى: ذلك: كما أخرجكَ رَبُّكَ، يا محمدُ، من بيتكَ بالحقِّ على كُرْهٍ من فريقٍ من المؤمنينَ، كذلك هم يَكرهونَ القتالَ، فهم يُجادِلونكَ فيه بعد ما تَبَيَّنَ لهم.

وقال آخرون منهم: معنى ذلك: يسألونكَ عن الأنفالِ مُجَادلةً، كما جَادلوكَ يومَ بدر فقالوا: «أخْرَجْتَنَا للعِيرِ، ولم تُعلمنا قِتالاً فنستعدَّ له».

وأَوْلَى هذه الأقوالِ عندي بالصوابِ، قولُ مَنْ قال في ذلك أنَّ معناه: كما أخرجكَ رَبُّكَ بالحقِّ على كره من فريقٍ من المؤمنين، كذلك يجادلونكَ في الحق بعد ما تَبَيَّنَ لأنَّ كِلَا الأمرينِ قد كان، أعني: خروجَ بعضِ مَنْ خرجَ من المدينةِ كارهاً، وجدالهم في لقاء العدو وعند دُنُوِّ القومِ بعضِهم من بعضٍ، فتشبيه بعضِ ذلكَ ببعضٍ، مع قُرْبِ أحَدِهما من الآخر، أَوْلَى من تشبيههِ بما بَعُدَ عنه.

وقال مجاهد في «الحق» الذي ذُكِرَ أنهم يجادلونَ فيه النبيَّ ﷺ بعد ما تَبَيَّنُوه: هو القتالُ.

الأنفال: ٦

وأما قوله: «مِنْ بيتكَ»، فإنَّ بعضهم قال: معناه: من المدينةِ.

وأما قوله: «وإنَّ فريقاً من المؤمنينَ لكارِهُونَ»، فإنَّ كراهَتَهم كانتْ لما سمع رَسول اللهِ ﷺ بأبي سفيانَ مُقْبلاً من الشام، نَدَبَ إليهم المسلمينَ[1]، وقال: هذه عِيرُ[2] قريشٍ فيها أموالُهم، فاخْرُجُوا إليها، لَعَلَّ اللهَ أنْ ينفِّلَكُمُوهَا! فانتدب الناس، فَخَفَّ بعضُهم وثَقُلَ بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أنَّ رسولَ الله ﷺ يَلْقى حرباً[3].

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في الذين عُنُوا بقوله: «يُجادِلونكَ في الحق بعد ما تبين».

فقال بعضهم: عُني بذلك أهلُ الإيمان من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، الذين كانوا معه حين توجَّه إلى بدرٍ للقاءِ المشركين.

وقال آخرون: عُني بذلك المشركونَ.

والصوابُ من القول في ذلك أنَّ ذلك خبرٌ من اللهِ عن فريقٍ من المؤمنينَ أنهم كَرِهُوا لِقاءَ العدو، وكان جِدالُهم نبيَّ الله ﷺ أنْ قالوا: «لم يُعلمنا أنا نَلْقَى العَدُوَّ فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا للعيرِ». وما يدلُّ على صحته قولُه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أنها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتَ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، ففي ذلك الدليلُ الواضح لمن فَهِمَ عن الله، أنَّ القومَ قد كانوا للشوكةِ كارهينَ، وأنَّ جدالهم كان في القتال، كما قال مجاهد، كراهيةً منهم له، لأنَّ الذي قَبْلَ قولِه: «يجادلونكَ في الحق»، خبرٌ عن أهلِ الإيمان، والذي يَتْلُوه خبرٌ عنهم، فأنْ يكونَ خبراً عنهم، أوْلى منه بأنْ يكونَ خبراً عَمَّنْ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ.

---

(١) ندب الناس إلى حربٍ أو مَعُونةٍ، فانتدبوا، أي: دعاهم فاستجابوا وأسرعوا إليه.

(٢) العِير: القافلة.

(٣) أنظر سيرة ابن هشام: ٢/٢٥٧ـ٢٥٨.

وأما قوله: «بعد ما تَبيَّنَ»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: بعدما تبين لهم أنَّكَ لا تفعلُ إلا ما أمرَكَ الله.

وقال آخرون: معناه: يجادلونكَ في القتال بعدما أُمِرْتَ به.

وأما قوله: «كأنَّما يُساقُونَ إلى الموتِ وهم يَنظرون»، فإنَّ معناه: كأنَّ هؤلاء الذين يُجادلونكَ في لقاء العدوِّ، من كراهتهم للقائهم إذا دُعُوا إلى لقائهم للقتال، «يُسَاقونَ إلى الموت».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكروا، أيها القومُ. «إذ يَعِدُكُمُ الله إحدى الطائفتين»، يعني إحدى الفرقتين، فرقة أبي سفيان بن حرب والعِير، وفرقة المشركين الذين نَفَروا من مكة لمنعِ عِيْرِهم.

وقوله: «أنها لكم»، يقول: أنَّ ما معهم غنيمةٌ لكم. «وتَوَدُّونَ أنَّ غيرَ ذاتِ الشوكةِ تكونُ لكم»، يقول: وتُحِبُّونَ أنْ تكونَ تلك الطائفةُ التي ليست لها شوكةٌ ـ يقول: ليس لها حدٌّ، ولا فيها قتال ـ أن تكون لكم. يقول: تَوَدُّونَ أنْ تكونَ لكم العيرُ التي ليس فيها قتالٌ لكم، دونَ جماعةِ قريش الذين جاءوا لمنعِ عِيرِهم، الذين في لقائهم القتالُ والحربُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويُريدُ الله أنْ يُحِقَّ الإسلامَ ويُعليَه. «بكلماته»،

يقول: بأمره إياكم، أيها المؤمنونَ، بقتالِ الكفار، وأنتم تُريدونَ الغنيمةَ، والمالَ. وقوله: «ويقطعَ دابرَ الكافرينَ»، يقول: يُريدُ أنْ يَجُبَّ أصلَ الجاحدينَ توحيدَ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويريد الله أنْ يقطعَ دابرَ الكافرين، كَيْمَا يُحِقَّ الحَقَّ، كيما يُعْبَدَ الله وحدَهُ دونَ الآلهةِ والأصنام، ويُعِزَّ الإسلامُ، وذلك هو «تحقيق الحق». «ويُبْطِلَ الباطلَ»، يقول: ويُبْطِلَ عبادةَ الآلهةِ والأوثان والكفر، ولو كَرِهَ ذلك الذين أجرموا فاكتسبوا المآثمَ والأوزارَ من الكفار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ويبطل الباطل»، حينَ تَستغيثونَ رَبَّكم فـ«إذْ» من صلة «يبطل».

ومعنى قوله: «تَستغيثونَ رَبَّكم»، تَستجيرونَ به من عَدُوِّكم، وتَدْعُونَهُ للنصرِ عليهم. «فاستجابَ لكم»، يقول: فأجابَ دُعاءَكم، بأنِّي مُمِدُّكُمْ بألفٍ من الملائكةِ يُرْدِفُ بعضُهم بعضاً، ويَتْلُو بعضُهم بعضاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لم يجعلِ اللهُ إردافَ الملائكةِ بعضَها بعضاً وتَتَابُعَها بالمصير إليكم، أيهـا المؤمنونَ، مَدَداً لكم. «إلا بشرى» لكم، أي: بشارة لكم، تُبَشِّرُكُمْ بنصرِ الله إياكم على أعدائِكم. «ولتطمئنَّ به قلوبكم»، يقول: ولتسكنَ قلوبكم بمجيئها إليكم، وتُوقِنَ بنصرِ اللهِ لكم. «وما النصرُ إلا من عند الله»، يقول: وما تُنْصَرُونَ على عدوِّكم، أيها المؤمنونَ، إلا أنْ يَنصركُم الله عليهم، لا بِشِدَّةِ بأسِكم وقواكم، بَلْ بنصرِ اللهِ لكم، لأنَّ ذلك بيدهِ وإليهِ، يَنْصُرُ مَنْ يشاء من خَلْقِه. «إنَّ الله عزيز حكيم»، يقول: إنَّ الله الذي ينصركم، وبيدهِ نَصْرُ مَنْ يشاء من خَلْقِه. «عزيز»، لا يقهره شيءٌ، ولا يغلبه غالِبٌ، بل يَقْهرُ كُلَّ شيءٍ ويغلبه، لأنه خلقه. «حكيم»، يقول: حكيمٌ في تدبيره ونَصْرِه مَنْ نَصَرَ، وخذلانِه مَنْ خذلَ من خَلْقِه، لا يدخلُ تدبيره وهنٌ ولا خَلل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

يقول تعالى ذِكْرُه: «ولتطمئنَّ به قلوبُكم»، «إذْ يُغَشِّيكم النعاسَ»، ويعني بقوله: «يغشيكم النعاسَ»، يلقي عليكمُ النعاسَ. «أَمَنَةً» يقول: أماناً من الله لكم من عَدُوِّكُم أنْ يَغْلِبَكُمْ، وكذلك النعاسُ في الحرب أمنة من الله عَزَّ وجَلَّ.

وأما قوله عَزَّ وجَلَّ: «ويُنَزِّلُ عليكم من السماءِ ماءً ليطهركم به»، فإنَّ ذلك مطرٌ أنـزلَهُ اللهُ من السماءِ يومَ بدرٍ لِيُطَهِّرَ به المؤمنينَ لصلاتهم، لأنهم كانوا أصبحـوا يومئـذٍ مُجْنِبينَ على غيرِ ماءٍ. فلمـا أنـزلَ اللهُ عليهم الماءَ اغتسلوا وتَطَهَّرُوا، وكانَ الشيطانُ قد وسوسَ إليهم بما حَزَنَهُمْ به من إصباحهم مُجْنِبينَ

على غيرِ ماءٍ، فأذْهَبَ اللهُ ذلك من قلوبهم بالمطر. فذلك رَبْطُه على قلوبهم، وتقويته أسبابهم، وتَثْبيته بذلك المطرِ أقدامَهُمْ، لأنهم كانوا التقوا مع عَدُوِّهم على رملة ميثاء[1]، فَلَبَّدَها المطرُ، حتى صارت الأقدامُ عليها ثابتةً لا تسوخُ فيها، توطئةً من الله عَزَّ وجَلَّ لنبيهِ عليه السلام وأوليائه، أسبابَ التَّمَكُّنِ من عَدُوِّهم والظفر بهم.

وأما قوله: «إذْ يُوحي رَبُّكَ إلى الملائكةِ أنِّي معكم»، أنْصُرُكُمْ. «فَثَبِّتُوا الذين آمنوا»، يقول: قَوُّوا عَزْمَهم، وصَحِّحُوا نِيَّاتهم في قتالِ عدوهم من المشركين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: سأُرْعِبُ قلوبَ الذين كفروا بي، أيها المؤمنونَ، منكم، وأملأها فَرَقاً حتى ينهزموا عنكم. «فاضْرِبُوا فوقَ الأعناق».

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «فوق الأعناق».

فقال بعضهم: معناه: فاضربوا الأعناقَ.

واحتج قائلو هذه المقالةِ بأنَّ العربَ تقول: «رأيتُ نفس فلان»، بمعنى: رأيته. قالوا: فكذلك قوله: «فاضربوا فوقَ الأعناق»، إنما معناه: فاضربوا الأعناقَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك، فاضربوا الرؤوسَ.

واعتل قائلو هذه المقالة بأنَّ الذي «فوق الأعناق»، الرؤوس. قالوا: وغير

(١) الرملة الميثاء: اللَيِّنةُ السهلة.

جائزٍ أنْ تقول «فوق الأعناق»، فيكون معناه: «الأعناق». قالوا: ولو جازَ ذلك، جازَ أنْ يُقالَ: «تحتَ الأعناق»، فيكون معناه: «الأعناق». قالوا: وذلك خِلافُ المعقولِ من الخطابِ، وقلبٌ لمعاني الكلام.

وقال آخرون: معنى ذلك: فاضربوا على الأعناقِ، وقالوا: «على» و«فوقَ» معناهما متقاربان، فجاز أن يُوضَعَ أحَدُهما مكانَ الآخر[1].

والصوابُ من القول في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ الله أمرَ المؤمنين، مُعَلِّمَهُمْ كيفيةَ قَتْلِ المشركينَ وضَرْبِهم بالسيفِ: أنْ يَضربُوا فوقَ الأعناق منهم والأيديَ والأرجل. وقوله «فوق الأعناق»، محتملٌ أنْ يكونَ مُراداً به الرؤوس، ومحتمل أن يكون مراداً له: من فوق جِلْدَةِ الأعناقِ، فيكون معناه: على الأعناق. وإذا احتمل ذلك، صَحَّ قولُ مَنْ قال، معناه: الأعناق. وإذا كان الأمرُ محتملاً ما ذكرنا من التأويلِ، لم يَكُنْ لنا أنْ نوجِّهه إلى بعضِ معانيهِ دونَ بعضٍ، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها. ولا حُجَّةَ تدلُّ على خصوصِه، فالواجبُ أن يقالَ: إنَّ الله أمرَ بضربِ رؤوس المشركينَ وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم، أصحابَ نَبيِّهِ ﷺ الذين شَهِدُوا معه بدراً.

وأما قوله: «واضربوا منهم كُلَّ بَنان»، فإنَّ معناه: واضربوا، أيها المؤمنونَ، من عَدُوِّكم كُلَّ طَرَفٍ ومَفْصِلٍ من أطرافِ أيديهم وأرجلهم.

و«البنانُ» جمع «بنانة»، وهي أطرافُ أصابعِ اليدين والرجلين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾

(١) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: ١/٢٤٢.

يعني تعالى ذِكْرُه لقوله: «ذلكَ بأنَّهم»، هذا الفعلُ من ضَرْبِ هؤلاء الكَفَرةِ فوقَ الأعناقِ وضَرْبِ كُلِّ بَنانٍ منهم، جزاءٌ لهم بِشِقَاقِهم اللهَ ورسولَهُ، وعقابٌ لهم عليه.

ومعنى قولـه: «شَـاقُّوا اللهَ وَرسولَهُ»، فارقوا أمرَ اللهِ ورسولهُ وعصوهما، وأطاعوا أمرَ الشيطان.

ومعنى قوله: «ومَنْ يُشاقِقْ اللهَ ورسولَهُ»، ومَنْ يخالِفْ أمرَ اللهِ وأمرَ رسولهِ ففـارق طاعتهما. «فإنَّ اللهَ شديدُ العقاب» له. وشدة عقابه له: في الدنيا، إحلالُه به ما كانَ يحلُّ بأعدائِه من النِّقَمِ، وفي الآخرة، الخلودُ في نارِ جهنم. وحذف «له» من الكلام، لدلالة الكلام عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: هذا العقـابُ الـذي عَجَّلْتُه لكم، أيها الكافرونَ المشاقُّونَ للهِ ورسولهِ، في الدنيا، مِنَ الضَّرْبِ فوقَ الأعناقِ منكم، وضرب كُلِّ بنـانٍ، بأيدي أوليائي المؤمنين، فَذُوقُوه عاجلاً، واعلموا أنَّ لكم في الآجلِ والمَعَادِ عذابَ النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ. «إذا لَقِيتُمُ الذين

كفــروا» في القتــالِ. «زحفــاً»، يقــول: مُتَـزَاحِفـاً بعضُكم إلى بعضٍ - و«التـزاحف»، التـداني والتقـاربُ. «فلا تُوَلُّوهم الأدبارَ»، يقول: فلا تولوهم ظُهورَكم فتنهزِمُوا عنهم، ولكن اثبتوا لهم، فإنَّ الله معكم عليهم. «ومَنْ يُوَلِّهم يومئذٍ دُبُرَهُ»، يقول: ومَنْ يولِّهم منكم ظَهْرَهُ. «إلَّا مُتَحَرِّفاً لقتالٍ»، يقول: إلا مستطرداً لقتالِ عَدُوِّهِ، يطلبُ عورةً له يمكنه إصابتها فيكرّ عليه. «أو متحيزاً إلى فئـة» أوْ: إلَّا أنْ يُولِّيهم ظَهْـرَهُ متحيِّزاً إلى فئة، يقول: صائراً إلى حَيِّزِ المؤمنينَ الذين يَفِيئونَ به معهم إليهم لقتالهم، ويرجعونَ به إليهم معهم.

واختلف أهلُ العلمِ في حُكْمِ قولِ الله عَزَّ وجَلَّ: «ومَنْ يُوَلِّهم يومئذٍ دُبُرَهُ إلَّا متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئةٍ فقد باء بغضبٍ من الله ومأواهُ جهنم»، هل هو خاصٌّ في أهلِ بدر، أم هو في المؤمنينَ جميعاً؟

فقال قوم: هو لأهلِ بدرٍ خاصة، لأنه لم يكن لهم أنْ يتركُوا رسولَ الله ﷺ مع عَدُوِّهِ وينهزموا عنه، فأما اليومَ فلهم الانهزامُ.

وقال آخرون: بل هذه الآية حُكْمُهَا عام في كُلِّ مَنْ وَلَّى الدبرَ عن العدوِ منهزماً.

وأوْلى التأويلين في هذه الآيةِ بالصوابِ عندي، قولُ مَنْ قال: حُكْمُهَا مُحْكَمٌ، وأنها نزلت في أهل بدر، وحكمها ثابتٌ في جميع المؤمنين، وأنَّ الله حَرَّمَ على المؤمنينَ إذا لَقُوا العَدُوّ، أنْ يولُّوهم الدُّبُرَ منهزمينَ إلا لتحرفٍ لقتال، أو لتحيُّزٍ إلى فئةٍ من المؤمنينَ حيثُ كانت من أرضِ الإسلام، وأنَّ مَنْ ولَّاهُمْ الدبرَ بعد الزحفِ لقتالٍ منهزماً بغير نِيَّةِ إحدى الخلَّتين اللَّتين أباحَ اللهُ التوليةَ بهما، فقد استوجبَ من اللهِ وعِيدَهُ، إلَّا أنْ يتفضَّلَ عليه بعفوِهِ.

وإنما قلنا هي محكمةٌ غير منسوخة، لما قد بَيَّنَّا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره: أنه لا يجوزُ أنْ يُحْكَمَ لحكمِ آيةٍ بنسخٍ، وله في غيرِ النسخ وجهٌ،

إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها، من خبرٍ يقطعُ العُذْرَ، أو حجةِ عقلٍ. ولا حُجَّةَ من هذين المعنيين تدلُّ على نسخِ حكمِ قولِ الله عَزَّ وجَلَّ: «ومَنْ يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة».

وأما قوله: «فقد باء بغضبٍ من الله»، يقول: فقد رجعَ بغضبٍ من الله. «ومأواهُ جهنمُ»، يقول: ومصيرهُ الذي يَصيرُ إليه في مَعَادِه يومَ القيامة جهنم. «وبئس المصير»، يقول: وبئس الموضعُ الذي يصيرُ إليه ذلك المصير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به وبرسولِه، مِمَّنْ شَهِدَ بدراً مع رسول الله ﷺ، فقاتلَ أعداءَ دِينهِ معه من كفارِ قريش: فَلَمْ تَقْتُلوا المشركينَ، أيها المؤمنون، أنتم، ولكنَّ الله قَتلَهُمْ.

وأضافَ جَلَّ ثناؤُهُ قَتلَهُمْ إلى نفسِه، ونَفاهُ عن المؤمنينَ به الذين قاتلوا المشركينَ، إذْ كان جَلَّ ثناؤُهُ هو مُسَبِّبَ قَتْلِهم، وعن أمرِه كانَ قتالُ المؤمنينَ إياهم. ففي ذلك أدلُّ الدليلِ على فسادِ قولِ المنكرين أنْ يكونَ لله في أفعال خَلْقِه صُنْعٌ به وَصَلوا إليها.

وكذلك قولُه لنبيهِ عليه السلام: «وما رَمَيْتَ إذْ رميتَ ولكنَّ الله رمى»، فأضاف الرمي إلى نبيِّ الله، ثم نفاهُ عنه، وأخبرَ عن نفسِه أنه هو الرامي، إذ كان جَلَّ ثناؤُهُ هو المُوصِلَ المَرْمِيَّ به إلى الذين رُمُوا به من المشركينَ، والمسبِّبُ الرميةَ لرسولِه.

فيقال للمنكرين ما ذكرنا: قد علمتم إضافةَ الله رَمْي نبيه ﷺ المشركينَ إلى نفسه، بعد وصفه نبيَّه به، وإضافته إليه، وذلك فِعْلٌ واحد، كان من الله تسبيبهُ وتسديدهُ، ومن رسولِ الله ﷺ الحذفُ والإرسالُ، فما تنْكِرُونَ أنْ يكونَ كذلك سائر أفعالِ الخَلْقِ المُكْتَسبة: مِنَ اللهِ الإنشاءُ والإنجازُ بالتسبيبِ، ومن الخَلْقِ الاكتسابُ بالقُوى؟ فلن يقولوا في أحدهما قولاً إلا أُلْزِمُوا في الآخر مثله.

وأما قوله: «وليُبْلِيَ المؤمنينَ منه بلاءً حسناً»، فإنَّ معناه: وكي يُنْعِمَ على المؤمنينَ باللهِ ورسوله بالظفرِ بأعدائهم، ويُغَنِّمَهُم ما معهم، ويكتبَ لهم أجورَ أعمالِهم وجهادَهُمْ مع رسولِ الله ﷺ.

وذلك «البلاء الحسن»، رميُ الله هؤلاءِ المشركينَ، ويعني بـ«البلاء الحسن»، النعمةَ الحسنةَ الجميلةَ، وهي ما وصفت وما في معناه.

وقوله: «إن الله سميع عليم»، يعني: إنَّ الله سميع، أيها المؤمنون، لدعاءِ النبيِّ ﷺ، ومناشَدَته رَبَّهُ، ومسألته إياهُ إهلاكَ عَدُوِّهِ وعَدُوِّكُم ولقِيْلِكُمْ وقِيلِ جميعِ خَلْقِه. «عليمٌ»، بذلك كُلِّه، وبما فيه صلاحُكُمْ وصلاحُ عبادِه، وغير ذلك من الأشياء، محيطٌ به، فاتقوه وأطيعوا أمرَهُ وأمرَ رسولِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ذلكم»، هذا الفعلُ من قَتْلِ المشركينَ، ورَمْيِهم حتى انهزموا، وابتلاءِ المؤمنينَ البلاء الحسن بالظَّفَرِ بهم، وإمكانِهم من قَتلِهم وأسْرِهم فِعْلُنَا الذي فَعَلْنَا. «وإنَّ الله مُوهِنُ كيدِ الكافرين»، يقول: واعلموا أنَّ الله مع ذلك مُضْعِفُ «كيدِ الكافرين»، يعني: مَكْرَهُمْ، حتى يَذِلُّوا وينقادوا للحقِّ، أو يُهْلَكوا.

وقد اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «موهن».

فقرأته عامة قَرأةِ أهلِ المدينة وبعض المكيين والبصريين: ﴿مُوَهِّنُ﴾ بالتشديد، من «وَهَّنْتُ الشيءَ»، ضَعَّفته.

وقرأ ذلك عامة قرأة الكوفيين: ﴿مُوهِنُ﴾، من «أَوْهَنْتُهُ، فأنا مُوهِنُهُ»، بمعنى: أضعفته.

والتشديدُ في ذلك أعجبُ إليَّ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه كان ينقضُ ما يُبرمهُ المشركونَ لرسولِ الله ﷺ وأصحابه، عَقْداً بعد عَقْدٍ، وشيئاً بعد شيءٍ. وإنْ كان الآخرُ وجهاً صحيحاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه للمشركينَ الذين حاربوا رسولَ الله ﷺ ببدر: «إنْ تَسْتَفْتِحُوا فقد جاءَكُمُ الفتحُ»، يعني: إن تستحكموا الله على أقطعِ الحِزْبَيْن للرحمِ، وأظلمِ الفئتين، وتَستنصِـرُوه عليه، فقـد جاءكم حُكْمُ الله، ونَصْرُه المظلوم على الظالمِ، والمُحِقَّ على المُبْطِلِ.

وأما قوله: «وإنْ تَنْتَهُوا فهو خيرٌ لكم»، فإنه يقول: «وإنْ تنتهوا»، يا معشرَ قريش، وجماعة الكفار، عن الكفرِ باللهِ ورسولِه، وقتال نَبيِّه ﷺ والمؤمنينَ به. «فهو خيرٌ لكم»، في دنياكم وآخرتكم. «وإنْ تعودوا نَعُدْ»، يقول: وإنْ تعودوا لحربِهِ وقتالِه وقتالِ أتباعِه المؤمنين. «نَعُدْ»، أي: بمثلِ الوقعةِ التي أوقعتُ بكم يومَ بدر.

وقوله: «ولن تُغنيَ عنكم فِئَتُكم شيئاً ولو كَثُرَتْ»، يقول: وإنْ تَعودوا نَعُدْ لهلاكِكُمْ بأيدي أوليائي وهزيمتِكُمْ، ولَنْ تُغنيَ عنكم عند عَوْدِي لقتلِكم بأيديهم وسَبْيِكم وهـزمكم. «فئتكم شيئـاً ولو كثرت»، يعني: جندهم وجماعتهم من المشركينَ، كما لم يُغْنُوا عنهم يومَ بدرٍ، مع كثرةِ عددهم وقلةِ عَدَدِ المؤمنينَ، شيئاً. «وأنَّ الله مع المؤمنين»، يقول جَلَّ ذِكْرُه: وأنَّ الله مع مَنْ آمَن به من عبادِه على مَنْ كَفَرَ به منهم، ينصرهم عليهم، أو يُظْهِرُهم كما أظهرَهُمْ يومَ بدرٍ على المشركين.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «وأن الله مع المؤمنين».

ففتحها عامةُ قَرَأَةِ أهل المدينة بمعنى: ولن تغنيَ عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وأن الله لمع المؤمنين ـ فعطف بـ«أن» على موضع «ولو كثرت»، كأنه قال: لكثرتها، ولأنَّ الله مع المؤمنين. ويكون موضع «أن» حينئذٍ نصباً على هذا القول[1].

وكان بعضُ أهلِ العربية يزعمُ أنَّ فتحها إذا فتحت، على: «وأنَّ الله موهنُ كيدِ الكافرين»، «وأنَّ الله مع المؤمنين»، عطفاً بالأخرى على الأولى.

وقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ الكوفيين والبصريين: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾، بكسر الألف، على الابتداء، واعْتَلُّوا بأنها في قراءة عبدالله: ﴿وإنَّ الله لَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأَوْلى القراءتين بالصوابِ، قراءةُ مَنْ كسر «إن» للابتداء، لتقضِّي الخبرِ قبلَ ذلك عما يقتضي قوله: «وأن الله مع المؤمنين».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/٤٠٧.

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله «أطيعوا الله ورسوله»، فيما أمَرَكُمْ به وفيما نَهاكُمْ عنه. «ولا تولوا عنه»، يقول: ولا تُدْبرُوا عن رسولِ الله ﷺ مخالفينَ أمْرَهُ ونَهْيَهُ. «وأنتم تسمعون»، أمرَهُ إياكُمْ ونَهْيَهُ، وأنتم به مؤمنون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ باللهِ ورسولِه من أصحابِ نبيِّ الله ﷺ: لا تكونوا، أيها المؤمنون، في مخالفةِ رسولِ الله ﷺ، كالمشركينَ الذين إذا سمعوا كتابَ الله يُتْلَى عليهم قالوا: «قد سمعنا»، بآذاننا. «وهم لا يسمعون»، يقول: وهم لا يعتبرونَ ما يسمعونَ بآذانِهم ولا ينتفعونَ به، لإعراضِهم عنه، وتَرْكِهم أنْ يُوعُوه قلوبَهُمْ ويَتَدَبَّرُوهُ. فجعلهم اللهُ، إذْ لم يَنتفعُوا بمواعظِ القرآنِ وإنْ كانوا قد سَمِعُوها بآذانِهم، بمنزلةِ مَنْ لم يَسْمَعْهَا. يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ لأصحابِ رسولِ الله ﷺ: لا تكونوا أنتم في الإعراضِ عن أمرِ رسولِ الله، وتركِ الانتهاءِ إليه وأنتم تسمعونَهُ بآذانِكم، كَهؤلاءِ المشركينَ الذين يسمعونَ مواعظَ كتابِ الله بآذانهم، ويقولون: «قد سمعنا»، وهُمْ عن الاستماعِ لها والاتِّعاظِ بها مُعْرِضُونَ كمن لا يسمَعُها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ شَرَّ ما دَبَّ على الأرضِ من خَلْقِ اللهِ عند الله،

الذين يُصْغُونَ[1] عن الحَقِّ لئلا يستمعوه، فيعتبروا به ويَتَّعِظُوا به، وينكُصون عنه إنْ نطقوا به، الذين لا يعقلونَ عن الله أمْرَهُ ونهيه، فيستعملوا بهما أبدانهم.

واخْتُلِفَ فيمن عُنِيَ بهذه الآية.

فقال بعضهم: عُني بها نفرٌ من المشركينَ.

وقال آخرون: عُنيَ بها المنافقون.

وأولى القولين في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: إنه عُنيَ بهذه الآيةِ مشركُو قريش، لأنها في سياقِ الخبرِ عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾

تأويلُ الآية: ولـو عَلِمَ اللهُ في هؤلاءِ القائلينَ خيراً، لأسْمَعَهُمْ مواعظَ القرآنِ وعِبَرَهُ، حتى يَعْقِلُوا عن الله عَزَّ وجَلَّ حُجَجَهُ منه، ولكنه قد عَلِمَ أنه لا خيرَ فيهم، وأنهم مِمَّنْ كُتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون. ولو أفْهَمَهُمْ ذلك حتى يعلموا ويفهموا، لَتَوَلَّوْا عن اللهِ وعن رسولِهِ، وهم مُعْرِضُونَ عن الإيمانِ بما دَلَّهُمْ على صحته مواعظُ الله وعِبَرُه وحججه، معاندونَ للحقِّ بعد العلمِ به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾

اختلف أهـلُ التأويل في تأويل قوله: «إذا دعاكم لما يحييكم». فقال

(١) أي يميلون عن الحق، وصغت الشمس والنجوم: مالت للغُروب، وصغا إلى القوم: كان هواه معهم. وصغا على القوم: كان هواه مع غيرهم.

بعضُهم: معناه: اسْتَجِيبُوا لله وللرسولِ إذا دعاكم للإيمانِ.

وقال آخرون: للحَقِّ.

وقال آخرون: معناه: إذا دَعَاكُمْ إلى ما في القرآن.

وقال آخرون: معناه: إذا دعاكم إلى الحربِ وجهادِ العدو.

وأوْلى الأقـوال في ذلك بالصوابِ، قولُ مَنْ قالَ: معناه: استجيبوا للهِ وللرسولِ بالطاعةِ، إذا دعاكم الرسولُ لما يُحْيِيكُمْ من الحَقِّ. وذلك أن ذلك إذا كان معناه، كان داخلاً فيه الأمرُ بإجابتِهم لقتالِ العدوِّ والجهادِ، والإجابة إذا دعاكم إلى حُكْمِ القرآنِ، وفي الإجابةِ إلى كل ذلك حياةُ المُجيبِ. أما في الدنيا، فبقاءُ الذِّكْرِ الجميل، وذلك له فيه حياةٌ. وأما في الآخرة، فحياةُ الأبدِ في الجِنانِ والخلود فيها.

وأمـا قولُ مَنْ قال: معنـاه: الإسلامُ، فقولٌ لا معنى له. لأنَّ الله قد وصفهم بالإيمانِ بقوله: «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا للهِ وللرسولِ إذا دعاكم لما يحييكم»، فلا وَجْهَ لأَنْ يُقالَ للمؤمن: اسْتَجِبْ لله وللرسولِ إذا دعا الى الإسلامِ والإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضُهم: معناه: يَحُولُ بين الكافرِ والإيمان، وبين المؤمننِ والكفر.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: يَحُولُ بين المرءِ وعقله، فلا يدري ما يَعمل.

وقال آخرون: معناه: يَحولُ بن المرء وقلبه، أنْ يقدرَ على إيمانٍ أو كُفْرٍ إلا بإذنِه.

وقال آخرون: معنى ذلكَ: أنه قريبٌ من قلبهِ، لا يَخْفَى عليه شيءٌ أظْهَرَهُ أو أسَرَّهُ.

وأوْلى الأقوالِ بالصوابِ عندي في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ ذلك خبر من الله عَزَّ وجَلَّ أنه أَمْلَكُ لقلوبِ عبادِه منهم، وأنه يَحُولُ بينهم وبينها إذا شاءَ، حتى لا يقدرَ ذُو قلبٍ أن يُدرِكَ به شيئاً من إيمانٍ أو كفر، أو أن يَعِيَ به شيئاً، أو أنْ يفهمَ، إلا بإذنِهِ ومشيئته. وذلك أنَّ «الحول بين الشيء والشيء»، إنما هو الحجزُ بينهما، وإذا حَجَزَ جَلَّ ثناؤُهُ بين عبدٍ وقلبِهِ في شيءٍ أنْ يُدْرِكَهُ أو يفهمَهُ، لم يَكُنْ للعبدِ إلى إدراكِ ما قد مَنَعَ اللهُ قلبَهُ إدراكَهُ سبيلٌ.

وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك قولُ مَنْ قال: «يحولُ بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان»، وقولُ مَنْ قال: «يحولُ بينه وبين عقله»، وقولُ مَنْ قال: «يحولُ بينه وبين قلبه حتى لا يستطيعَ أنْ يؤمنَ ولا يكفرَ إلا بإذنه»، لأنَّ الله عَزَّ وجَلَّ إذا حال بين عبدٍ وقلبه، لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حِيلَ بينه وبينه ما مُنِعَ إدراكه به، على ما بَيَّنْتُ.

غير أنه ينبغي أنْ يقالَ: إنَّ الله عَمَّ بقولِهِ: «واعلموا أنَّ اللهَ يحولُ بين المرءِ وقلبه»، الخبرَ عن أنَّهُ يحولُ بين العبدِ وقلبه، ولم يخصصْ من المعاني التي ذكرنا شيئاً دونَ شيءٍ، والكلامُ محتملٌ كُلَّ هذه المعاني، فالخبر على العموم حتى يخصه ما يجبُ التسليمُ له.

وأما قوله: «وأنه إليه تُحْشَرُونَ»، فإنَّ معناه: واعلموا، أيها المؤمنونَ، أيضاً، مع العلم بأنَّ الله يحولُ بين المرءِ وقلبه: أنَّ الله الذي يقدرُ على قلوبكم، وهو أملكُ بها منكم، إليه مَصِيرُكم ومَرْجِعُكم في القيامة، فَيُوفِّيكُمْ

جزاءَ أعمالِكم، المحسنَ منكم بإحسانِه، والمسيءَ بإساءتِه، فاتَّقُوه وراقبوهُ فيما أَمَرَكُمْ ونَهاكم هو ورسولُهُ أنْ تُضيعوه، وأنْ لا تَستجيبُوا لرسولِهِ إذا دعاكم لما يُحْيِيكُمْ، فيوجب ذلك سَخَطَه، وتستحقوا به أليمَ عذابِهِ حين تُحْشَرُونَ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: للمؤمنينَ به وبرسوله: «اتقوا»، أيها المؤمنون. «فتنةً»، يقول: اختباراً من اللهِ يَخْتبركُمْ، وبلاءً يَبْتَلِيكم. «لا تُصيبَنَّ»، هذه الفتنةُ التي حَذَّرْتُكُمُوها. «الذين ظلموا»، وهم الذين فَعَلُوا ما ليسَ لهم فِعْلُه إما أجْرامٍ أصابوها، وذنوبٍ بينهم وبين الله رَكِبُوها. يحذرهم جَلَّ ثناؤُهُ أنْ يركَبُوا له معصيةً، أو يأتوا مأثماً يستحقُّونَ بذلك منه عقوبةً.

وقيل: إنَّ هذه الآية نزلتْ في قومٍ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، وهم الذين عُنوا بها.

وأما قوله: «اعلموا أنَّ الله شديدُ العقاب»، فإنه تحذيرٌ من اللهِ، ووعيدٌ لمن واقَعَ الفتنةَ التي حَذَّرَهُ إياها بقوله: «واتقوا فتنة». يقول: اعلموا، أيها المؤمنون، أنَّ رَبَّكم شديدُ عقابُه لمن افْتُتِنَ بظلمِ نفسِه، وخالفَ أمرَهُ فأثِمَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وهذا تذكيرٌ من الله عَزَّ وجَلَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ، ومناصحةٌ. يقول:

أطيعوا اللهَ ورسولَهُ، أيها المؤمنونَ، واستجيبُوا له إذا دعاكم لما يُحْييكم، ولا تخالِفُوا أمرَه وإنْ أمركم بما فيه عليكم المَشَقَّةُ والشِدَّةُ، فإنَّ الله يُهَوِّنُه عليكم بطاعتِكُمْ إياهُ، ويعجِّلُ لكم منه ما تُحبُّونَ، كما فعل بكم إذْ آمنتم به واتَّبعتمُوه وأنتم قليلٌ يَسْتضعفُكم الكفارُ فَيَفْتِنُونَكُمْ عن دِينكم، ويَنَالونكم بالمكروهِ في أنفسِكم وأعـراضِكم، تخـافـونَ منهم أنْ يَتَخَـطَّفُـوكم فيقتلوكم ويَصْـطَلِمُـوا جميعَكم. «فـآواكم»، يقـول: فجعلَ لكم مأوى تأْوُونَ إليه منهم. «وأَيَّدَكُمْ بنصره»، يقولُ: وقَوَّاكُمْ بنصرِه عليهم حتى قتلتم منهم مَنْ قتلتم ببدر. «ورزقكم من الـطيبـات»، يقول: وأطعمَكُمْ غَنِيمتَهم حلالاً طيباً. «لعلكم تشكرون»، يقول: لكي تَشْكُروه على ما رَزَقكم وأنعمَ به عليكم من ذلك وغيرِه من نِعَمِه عندكم.

واختلف أهلُ التأويل في «الناس» الذين عُنُوا بقوله: «أنْ يَتخطَّفكُمْ الناسُ».

فقال بعضهم: كفارُ قريش.

وقال آخرون: بل عُني به غيرُ قريش.

وأولى القـولين في ذلك عندي بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: «عُني بذلك مشركو قريش»، لأنَّ المسلمينَ لم يكونوا يخافون على أنفسهم قبلَ الهجرةِ من غيرهم، لأنهم كانوا أدنى الكفارِ منهم إليهم، وأشدَّهُمْ عليهم يومئذٍ، مع كَثْرةِ عَدَدِهم وقلةِ عَدَدِ المسلمين.

وأما قوله: «فآواكم»، فإنه يعني: آواكم المدينةَ، وكذلك قوله: «وأيدكم بنصره»، بالأنصارِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ

وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ باللهِ ورسولِه من أصحابِ نبيه ﷺ: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ. «لا تخونوا الله»، وخيانَتُهم اللهَ ورسولَهُ، كانتْ بإظهارِ مَنْ أظهرَ منهم لرسولِ الله ﷺ والمؤمنينَ الإيمانَ في الظاهرِ والنصيحةَ، وهو يَسْتَسِـرُّ الكُفْـرَ والغِشَّ لهم في البـاطنِ، يَدُلُّـونَ المشـركينَ على عورَتِهم، ويخبرونهم بما خفيَ عنهم من خبرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ: واعلموا، أيها المؤمنونَ، أَنَّما أموالُكُم التي خَوَّلَكُمُوهَـا الله، وأولادكم التي وَهَبَهَـا اللهُ لكم، اختبارٌ وبلاءٌ، أعطاكُمُوها ليختبرَكُمْ بها ويَبْتليكم، لينظرَ كيفَ أنتم عاملونَ من أداءِ حَقِّ الله عليكم فيها، والانتهاءِ إلى أمْرِه ونهيِه فيها. «وأنَّ الله عنده أجرٌ عظيم»، يقول: واعلموا أنَّ الله عنده خيرٌ وثوابٌ عظيم، على طاعَتِكُمْ إياهُ فيما أمركم ونهاكم، في أموالِكم وأولادِكم التي اختبركُمْ بها في الدنيا. وأطيعُوا اللهَ فيما كَلَّفَكُم فيها، تَنالُوا به الجزيلَ من ثوابِهِ في مَعادِكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ، إنْ تَتَّقُوا اللهَ بطاعتِه

وأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه، وتركِ خيانَتِه وخيانةِ رسولِه وخيانة أماناتكم.

«يَجْعَلْ لكم فُرقاناً»، يقول: يَجْعَلْ لكم فَصْلاً وفرْقاً بين حَقِّكم وباطلِ مَنْ يَبْغِيكُم السُّوءَ من أعدائِكم المشركينَ، بنصرِه إيَّاكُم عليهم، وإعطائِكم الظفرَ بهم. «ويُكَفِّرْ عنكم سَيِّئَاتِكم»، يقول: ويَمْحُو عنكم ما سَلَفَ من ذنوبِكم بينكم وبينه. «ويغفرْ لكم»، يقول: ويُغَطِّيها فَيَسْتُرها عليكم، فلا يُؤاخِذُكم بها.

«والله ذُو الفضلِ العظيم»، يقول: والله الذي يفعلُ ذلكَ بكم، له الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خَلْقِه بفعله ذلك وفعلِ أمثاله. وإنَّ فعله جزاءٌ منه لعبده على طاعته إياه، لأنه الموفِّقُ عَبْدَهُ لطاعته التي اكتسبها، حتى استحق من ربه الجزاء الذي وعَدَهُ عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ٣٠﴾

(يعني): واذْكُرْ، يا محمدُ، نعمتي عندكَ، بمكري بِمَنْ حاولَ المكرَ بك من مشركي قومكَ، بإثباتكَ أو قَتْلِكَ أو إخراجِكَ من وطنكَ، حتى استنقذتُكَ منهم وأهلكتهم، فامْضِ لأمري في حربِ مَنْ حاربكَ من المشركينَ، وتَوَلَّى عَنْ إجابةِ ما أرسلتُكَ به من الدِّينِ القيم، ولا يَرْعَبَنَّكَ كثرةُ عَدَدِهم، فإنَّ ربَّكَ خيرُ الماكرينَ بمن كَفَرَ به، وعَبَدَ غيرَهُ، وخالفَ أمره ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا تُتْلَى على هؤلاءِ الذينَ كَفَرُوا آيات كتابِ الله الواضحة لِمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِفَهْمِه. «قالوا»، جَهْلاً منهم، وعِناداً للحقِّ،

وهم يعلمون أنهم كاذبون في قِيْلِهم. «لو نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا»، الذي تُلِيَ علينا. «إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين»، يعني: أنهم يقولون: ما هذا القرآنُ الذي يُتْلَى عليهم إلَّا أساطيرُ الأولين.

وإنما عَنَى المشركونَ بقولهم: «إنْ هذا إلَّا أساطيرُ الأولين»، إنْ هذا القرآنُ الذي تتلوه علينا يا محمدُ، إلَّا ما سَطَّرهُ الأولون وكَتَبُوهُ من أخبارِ الأمم! كأنهم أضافُوه إلى أنه أُخِذَ عن بني آدمَ، وأنه لم يُوحِهِ اللهُ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكُرْ، يا محمدُ، أيضاً ما حَلَّ بمن قال: «اللهُمَّ إنْ كان هذا هو الحَقَّ من عندكَ فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم»، إذ مكرت بهم، فأتيتهم بعذاب أليم، وكان ذلك العذاب، قَتْلَهم بالسيفِ يومَ بدر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: تأويلُه: «وما كانَ اللهُ ليعذبهم وأنتَ فيهم»، أي: وأنتَ مقيمٌ بين أَظْهُرِهم. قال: وأُنزلتْ هذه على النبيِّ ﷺ وهو مقيمٌ بمكة. قال: ثم خرجَ النبيُّ ﷺ من بين أظهرهم، فاستغفرَ مَنْ بها من المسلمينَ، فأنزل بعد

خروجِهِ عليه، حين استغفرَ أولئكَ بها: «وما كانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وهم يستغفرونَ».
قال: ثم خرجَ أولئكَ البقيةُ من المسلمينَ من بينِهِم، فعذَّب الكفار.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما كانَ اللهُ ليعذِّبَ هؤلاءِ المشركينَ من قريش بمكةَ وأنتَ فيهم، يا محمدُ، حتى أخرجكَ من بينِهم. «وما كان الله معذبهم»، وهؤلاء المشركون، يقولون: «يا رَبِّ غُفرانكَ!»، وما أشبهَ ذلك من معاني الاستغفار بالقولِ. قالوا: وقوله: «وما لَهُمْ ألَّا يُعَذِّبَهُمْ اللهُ»، في الآخرةِ.

وقال آخرون: معنى ذلك: «وما كان الله ليعذبهم وأنتَ فيهم»، يا محمدُ، وما كانَ اللهُ مُعَذِّبَ المشركينَ وهم يستغفرونَ أي: لو اسْتَغْفَرُوا. قالوا: ولم يكونوا يستغفرون، فقال جَلَّ ثناؤهُ إذْ لم يكونوا يستغفرون: «وما لَهُمْ ألَّا يعذِّبَهُم الله وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرام».

وقال آخرون: معنى ذلك: وما كانَ الله ليعذبهم وهم يُسْلِمُونَ. قالوا: و«استغفارهم»، كان في هذا الموضع، إسلامَهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وفيهم مَنْ قد سَبَقَ له من اللهِ الدخولُ في الإسلامِ.

وقال آخرون: بل معناهُ: وما كان الله معذبهم وهم يُصَلُّون.

وأَوْلى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: تأويله: «وما كان الله ليعذبهم وأنتَ فيهم»، يا محمدُ، وبين أظهرهم مقيمٌ، حتى أخرجكَ من بينِ أظْهُرِهم، لأنِّي لا أُهلكُ قريةً وفيها نَبِيُّها. «وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون»، من ذنوبهم وكُفْرِهم، ولكنهم لا يستغفرونَ من ذلك، بَلْ هُمْ مُصِرُّونَ عليه، فهم للعذابِ مستحقُّونَ. كما يقال: «ما كنتُ لِأُحْسِنَ إليكَ وأنت تُسِيءُ إليَّ»، يُرَادُ بذلك: لا أُحْسِنُ إليكَ، إذا أسأتَ إليَّ، ولو أسأتَ إليَّ لم أُحْسِنْ إليكَ، ولكنْ أحسن إليكَ لأنك لا تسيءُ إليَّ. وكذلك ذلك،

ثم قيل: «وما لهم ألَّا يُعَذِّبَهُم اللهُ وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرام»، بمعنى: وما شأنهم، وما يمنعهم أنْ يعذبهم اللهُ وهم لا يستغفرونَ اللهَ مِنْ كُفْرِهم فيؤمنوا به، وهم يصدون المؤمنينَ باللهِ ورسوله عن المسجدِ الحرام؟

وإنما قلنا: «هذا القول أوْلى الأقوال في ذلك بالصواب»، لأنَّ القومَ - أعني مشركي مكة - كانوا استعجَلُوا العذابَ، فقالوا: «اللهم إنْ كانَ ما جاءَ به محمدٌ هو الحَقّ، فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم»، فقال الله لنبيه: «ما كنتُ لِأُعَذِّبَهُمْ وأنتَ فيهم، وما كنتُ لأعذبهم لو استغفروا، وكيف لا أعذبهم بعد إخراجك منهم، وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرام»؟. فأعْلَمَهُ جَلَّ ثناؤُهُ أنَّ الذي استعجَلُوا من العذابِ حائِقٌ بهم ونازلٌ، وأعلمهم حال نزوله بهم، وذلك بعد إخراجه إياهُ من بين أظهُرِهم. ولا وجهَ لإيعادِهم العذابَ في الآخرة، وهم مُسْتَعْجِلُوهُ في العاجل، ولاشَكَّ أنهم في الآخرة إلى العذابِ صائرون. بل في تعجيل الله لهم ذلك يومَ بَدْرٍ، الدليلُ الواضحُ على أنَّ القولَ في ذلك ما قلنا.

وكذلك لا وجهَ لقولِ مَنْ وجَّه قوله: «وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون»، إلى أنه عَنَى به المؤمنين، وهو في سياق الخبرِ عنهم، وعَمَّا اللهُ فاعلٌ بهم. ولا دليلَ على أنَّ الخبرَ عنهم قد تَقَضَّى، وعلى ذلك [كُنِيَ] به عنهم، وأن لا خلافَ في تأويلِهِ من أهله موجودٌ.

وكذلك أيضاً لا وجهَ لقولِ مَنْ قال: ذلك منسوخٌ بقوله: «وما لهم ألَّا يُعَذِّبَهُمْ اللهُ وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرام»، الآية، لأنَّ قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وما كان الله مُعَذِّبَهُمْ وهم يَستغفرون»، خبرٌ، والخبرُ لا يجوزُ أنْ يكونَ فيه نسخٌ، وإنما يكون النسخُ للأمرِ أو النهي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا

﴿ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما لهؤلاءِ المشركينَ ألَّا يُعَذِّبَهُمْ اللهُ وهم يصدون عن المسجد الحرام، ولم يكونوا أولياءَ اللهِ. «إنْ أولياؤه»، يقول: ما أولياءُ اللهِ. «إلَّا المتقون»، يعني: الذين يَتَّقُونَ اللهَ بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه. «ولكن أكثرهم لا يعلمون»، يقول: ولكن أكثرَ المشركينَ لا يعلمونَ أنَّ أولياءَ الله المتقون، بل يَحسبونَ أنهم أولياءُ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما لهؤلاءِ المشركينَ ألَّا يُعَذِّبهم الله، وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرام الذين يصلون لله فيه ويعبدونه، ولم يكونوا للهِ أولياءَ، بَلْ أولياؤه الذين يصدونهم عن المسجدِ الحرام، وهم لا يُصَلُّونَ في المسجدِ الحرام. «وما كان صلاتُهم عندَ البيتِ»، يعني بيتَ اللهِ العتيق. «إلَّا مُكاءً»، وهو الصفير.

وأما «التصديةُ»، فإنها التصفيقُ، يقال منه: «صَدَّى يُصَدِّي تصديةً»، و«صفَّق»، و«صفَّح»، بمعنى واحد.

وأما قوله: «فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون»، فإنه يعني العذابَ الذي وَعَدَهُمْ به بالسيفِ يومَ بَدْرٍ. يقولُ للمشركينَ الذين قالوا: «اللهُمَّ إنْ كانَ هذا هو الحق من عندكَ فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء» الآية، حين أتاهم بما استعجَلُوه من العذابِ. «ذوقوا»، أي: اطْعَمُوا، وليس بذوق بفَمٍ، ولكنه ذوقُ بالحسِّ ووجودُ طَعْمِ ألمِه بالقلوبِ. يقول لهم: فذوقوا العذابَ بما كنتم تَجْحدونَ أنَّ الله مُعَذِّبكم به على جحودِكم توحيدَ رَبِّكم، ورسالةَ نَبِيِّكُمْ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين كفروا باللهِ ورسولِه يُنفقونَ أموالَهم، فيعطونها أمثالَهم من المشركينَ ليتقوَّوْا بها على قتالِ رسولِ الله ﷺ والمؤمنينَ به، ليصدُّوا المؤمنينَ باللهِ ورسولِه عن الإيمانِ بالله ورسوله، فَسَيُنْفِقُونَ أموالَهم في ذلك، ثم تكونُ نفقتُهم تلك عليهم. «حَسْرَةً»، يقول: تصيرُ ندامةً عليهم، لأنَّ أموالهم تذهبُ، ولا يَظفرونَ بما يَأْملونَ ويطمعونَ فيه من إطفاءِ نورِ الله، وإعلاءِ كلمةِ الكُفْرِ على كلمةِ الله، لأنَّ الله مُعْلي كلمته، وجاعل كلمة الكفرِ السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشرُ اللهُ الذين كفروا به وبرسولِه إلى جهنم، فَيُعَذَّبُونَ فيها، فأعْظِمْ بها حسرةً وندامةً لمن عاشَ منهم ومَنْ هلك! أما الحيُّ، فَحُرِبَ مالُه وذهبَ باطلاً في غير دَرَكِ نَفْعٍ، ورجعَ مغلوباً مقهوراً مَحْرُوباً مَسْلُوباً. وأما الهالكُ، فَقُتِلَ وسُلِبَ، وعُجِّلَ به إلى نارِ الله يَخْلُدُ فيها، نعوذُ بالله من غضبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يحشرُ الله هؤلاء الذين كفروا بربهم ويُنفقونَ أموالَهم للصدِّ عن سبيلِ الله، إلى جهنم، ليفرق بينهم - وهم أهلُ الخبث، كما قال وسماهم «الخبيث» - وبين المؤمنينَ بالله وبرسوله، وهم «الطيبون»، كما سماهم

جَلَّ ثناؤُهُ . فميَّزَ جَلَّ ثناؤُهُ بينهم بأنْ أسْكَنَ أهلَ الإيمانِ به وبرسوله جناته، وأنزل أهلَ الكفرِ نارَه.

ويعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ويجعلَ الخبيثَ بعضَهُ على بعضٍ»، فيجعل الكفار بعضَهم فوقَ بعضٍ. «فيركمه جميعاً»، يقول: فيجعلُهم رُكَاماً، وهو أنْ يجمعَ بعضَهم إلى بعضٍ حتى يَكثُروا، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ في صفة السحاب: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً﴾ [النور: ٤٣]، أي: مجتمعاً كثيفاً.

وقوله: «فيجعله في جهنم» يقول: فيجعل الخبيثَ جميعاً في جهنم - فوحَّـدَ الخبـرَ عنهم لتوحيدِ قوله: «لِيَميزَ اللهُ الخبيثَ»، ثم قال: «أولئك هم الخاسرون»، فجمع، ولم يقل: «ذلك هو الخاسرُ»، فردَّهُ إلى أوَّلِ الخبر.

ويعني بـ«أولئك»، الذين كفروا، وتأويله: هؤلاءِ الذين يُنفقونَ أموالَهم لِيَصُدُّوا عن سبيلِ الله «هم الخاسرون»، ويعني بقوله: «الخاسرون»، الذين غُبِنَتْ صفقتُهم، وخَسِرَتْ تجارتُهم. وذلك أنهم شَرَوْا بأموالهم عذابَ الله في الآخـرة، وتَعَجَّلُوا بإنفاقِهم إياها فيما أنفقوا من قتالِ نبيِّ الله والمؤمنينَ به، الخزيَ والذلَّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، «للذين كفروا، من مشركي قومكَ. «إنْ يَنْتَهُوا»، عَمَّا هُمْ عليه مُقيمونَ من كُفْرِهم بالله ورسوله، وقتالِكَ وقتالِ المؤمنينَ، فَيُنِيبُوا إلى الإيمانِ - يغفر اللهُ لهم ما قَدْ خَلاَ ومَضَى من ذنوبِهم قبلَ إيمانِهم وإنابتِهم إلى طاعةِ الله وطاعة رسوله بإيمانهم وتوبتهم. «وإنْ يَعُودوا»، يقول: وإنْ يَعُدْ هؤلاءِ المشركونَ لقتالِكَ بعد الوقعةِ التي أوقَعْتَها

بهم يومَ بدرٍ ـ فقد مَضَتْ سُنَّتي في الأوَّلينَ منهم ببدر، ومن غيرِهم من القرونِ الخالية، إذْ طَغَوْا وكَذَّبوا رسلي ولم يَقْبَلُوا نُصْحَهُمْ، من إحلالِ عاجلِ النِّقَمِ بهم، فأحلَّ بهؤلاء إنْ عادوا لحربِكَ وقتالِكَ، مثال الذي أحللتُ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: للمؤمنينَ به وبرسوله: وإنْ يَعُدْ هؤلاءِ لحربِكَ، فقد رأيتم سنتي فيمَنْ قاتلكم منهم يومَ بدر، وأنا عائدٌ بمِثْلِها فيمَنْ حارَبَكُمْ منهم، فقاتلوهم حتى لا يكونَ شِرْكٌ، ولا يُعْبَد إلاَّ الله وحده لا شريكَ له، فيرتفع البلاءُ عن عبادِ الله من الأرض ـ وهو «الفتنة» ـ «ويكونَ الدين كله لله»، يقول: وحتى تكونَ الطاعةُ والعبادةُ كُلُّها للهِ خالصةً دونَ غيره.

وأما قوله: «فإن انتهوا»، فإنَّ معناه: فإنِ انتهوا عن الفتنةِ، وهي الشِّرْكُ باللهِ، وصارُوا إلى الدِّينِ الحق معكم. «فإنَّ الله بما يعملونَ بصيرٌ»، يقول: فإنَّ اللهَ لا يَخْفَى عليه ما يعملونَ من تَرْكِ الكُفْرِ والدخولِ في دينِ الإسلام، لأنه يُبْصِرُهم ويبصرُ أعمالكم، والأشياءُ كلها متجليةٌ له، لا تَغِيبُ عنه، ولا يعزبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في السمواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغرَ من ذلكَ ولا أكبر إلا في كتابٍ مبين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ ۞

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ أدبرَ هؤلاءِ المشركونَ عما دَعَوْتُموهم إليه، أيها المؤمنونَ، من الإيمانِ باللهِ ورسولِه، وتركِ قتالِكم على كُفْرِهم، فأبوا إلاَّ

الإصـرارَ على الكفـرِ وقتـالِكُمْ، فقـاتِلُوهم، وأيقِنـوا أنَّ الله مُعِينُكم عليهم وناصِرُكم. «نعم المولى»، هُوَ لكم، يقول: نِعْمَ المعينُ لكم ولأوليائِه. «ونعم النصيرُ»، وهو الناصرُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾

وهذا تعليمٌ من الله عَزَّ وجَلَّ المؤمنينَ قَسْمَ غنائِمِهم إذا غَنِمُوها. يقول تعالى ذِكْرُه: واعلموا، أيها المؤمنونَ، أنَّ ما غَنِمْتُمْ من غنيمةٍ.

واختلف أهلُ العلم في معنى «الغنيمة» و«الفيء».

فقال بعضهم: فيهما معنيان، كُلُّ واحدٍ منهما غير صاحبه. قالوا: إذا ظهرَ المسلمونَ على المشركينَ وعلى أرضِهم وأخذوهم عنوةً، فما أَخَذُوا من مالٍ ظَهَرُوا عليه فهو «غنيمةٌ»، وأما الأرضُ فهي في سوادنا هذا «فيءٌ».

وقال آخرون: «الغنيمة»، ما أُخِذَ عنوةً، و«الفيء»، ما كانَ عن صُلْحٍ.

وقال آخرون: «الغنيمةُ» و«الفيءُ»، بمعنى واحد. وقالوا: هذه الآيةُ التي في «الأنفال»، ناسخةُ قولَهُ: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلْرَّسُولِ﴾ الآية، [الحشر: ٧].

وقد بَيَّنَّا فيما مضى «الغنيمة»، وأنها المالُ يُوصَلُ إليه من مالِ مَنْ خَوَّلَ اللهُ مالَهُ أهلَ دِينِهِ، بِغَلَبَةٍ عليه وقهرٍ بقتال.

فأما «الفيء»، فإنه ما أفاءَ اللهُ على المسلمينَ من أموالِ أهل الشِّرْكِ، وهو ما رَدَّهُ عليهم منها بصلحٍ من غير إيجافِ خيلٍ ولا رِكاب. وقد يجوزُ أنْ يُسَمَّى ما ردَّته عليهم منها سيوفُهم ورماحهم وغير ذلك من سلاحِهم «فيئاً» لأنَّ «الفيءَ»، إنما هو مصدرٌ من قولِ القائلِ: «فاءَ الشيء يفيء فيئاً»، إذا رجعَ، و«أفاءه الله»، إذا رَدَّهُ.

غيرَ أنَّ الذي ردّ حُكْمَ الله فيه من الفيءِ بحكمه في «سورة الحشر»، إنما هو ما وصفتُ صِفَتَهُ من الفيءِ، دونَ ما أوجفَ عليه منه بالخيلِ والركاب، لعلل قد بَيَّنْتُهَا في كتاب: «كتاب لطيف القول، في أحكام شرائع الدين»، وسَنُبَيِّنُه أيضاً في تفسير «سورة الحشر»، إذا انتهينا إليه إنْ شاء الله تعالى.

وأما قولُ مَنْ قال: الآيةُ التي في «سورة الأنفال»، ناسخةٌ الآيةَ التي في «سورة الحشر»، فلا معنى له، إذْ كان لا معنى في إحدى الآيتين ينفي حُكْمَ الأخرى. وقد بَيَّنا معنى «النسخ»، وهو نفيُ حُكْمٍ قد ثَبَتَ بحكمٍ خلافه، في غير موضعٍ، بما أغنى عن إعادتِه في هذا الموضع.

وأما قوله: «من شيء»، فإنه مُرَادٌ به: كُلُّ ما وقَعَ عليه اسمُ «شيء»، مما خَوَّلَهُ الله المؤمنينَ من أموالِ مَنْ غلبوا على مالِه من المشركين، مما وَقَعَ عليه القَسْمُ، حتى الخيط والمِخْيط.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضُهم قوله: «فأنَّ لله خُمُسَهُ»، مفتاحُ كلامٍ، ولله الدنيا والآخرةُ وما فيهما، وإنما معنى الكلام: فإنَّ للرسولِ خُمُسَهُ.

وقال آخرون: معنى ذلك: فإنَّ لبيتِ الله خُمُسَهُ وللرسولِ.

وقال آخرون: ما سُمِّيَ لرسولِ الله ﷺ من ذلك، فإنما هو مُرَادٌ به قرابته، وليس لله ولا لرسولِه منه شيءٌ.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: قوله: «فأن لله خمسه»،

«افتتاح كلام»، وذلك لإجماع الحُجَّةِ على أنَّ الخمس غيرُ جائزٍ قَسْمُه على ستةِ أسهم. ولو كان لله فيه سَهْمٌ، لَوَجَبَ أن يكونَ خمسُ الغنيمةِ مقسوماً على ستةِ أسهمٍ. وإنما اختلفَ أهلُ العلم في قَسْمِه على خمسة فما دونها.

فأما مَنْ قال: «سهمُ الرسول لذوي القربى»، فقد أوجبَ للرسولِ سهماً، وإنْ كان ﷺ صَرَفَهُ إلى ذوي قرابته، فلم يخرج من أن يكون القسم كان على خمسة أسهم.

وأما قوله: «ولذي القُرْبى»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا فيهم.

فقال بعضهم: هم قرابةُ رسولِ الله ﷺ من بني هاشم.

وقال آخرون: بل هم قريش كُلُّها.

وقال آخرون: سَهْمُ ذي القربى كان لرسولِ الله ﷺ، ثم صارَ من بعدِه لوليِّ الأمرِ من بعده.

وقال آخرون: بل سهم ذي القربى كان لبني هاشم وبني المُطَّلِبِ خاصةً.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ عندي، قولُ مَنْ قال: «سهم ذي القربى، كان لقرابةِ رسولِ الله ﷺ من بني هاشم وحلفائهم من بني المطلب»، لأنَّ حليفَ القومِ منهم، ولصِحَّةِ الخبرِ الذي رواه جبير بن مُطْعِم قال: لما قَسَمَ رسولُ الله ﷺ سهمَ ذي القربى من خيبر على بني هاشم وبني المطلب، مشيتُ أنا وعثمان بن عفان رحمةُ الله عليه، فقلنا: يا رسولَ الله، هؤلاء إخوتُكَ بنو هاشم، لا ننكر فَضْلَهُم، لمكانِكَ الذي جعلكَ اللهُ به منهم، أرأيتَ إخوانَنا بني المطلب، أعطيتَهُمْ وتَرَكْتَنَا، وإنما نحنُ وهُمْ منكَ بمنزلةٍ واحدة؟ فقال: إنهم لم يُفَارِقُونا في جاهليةٍ ولا إسلام، إنما بَنُو هاشم وبنو المطلب شيءٌ واحد!

الأنفال: ٤١

ثم شَبَّكَ رسولُ الله ﷺ يديه إحْدَاهُمَا بالأخرى[1].

واختلف أهلُ العلم في حكمِ هذين السهمين ـ أعني سهمَ رسولِ الله ﷺ، وسهمَ ذي القربى بعد رسولِ الله ﷺ.

فقال بعضهم: يُصْرَفَانِ في معونةِ الإسلامِ وأهله.

وقال آخرون: سهمُ ذوي القربى من بعدِ رسولِ الله ﷺ مع سهمِ رسولِ الله ﷺ إلى وليِّ أمرِ المسلمين.

وقال آخرون: سهمُ رسولِ الله ﷺ مردودٌ في الخمس، والخمسُ مقسومٌ على ثلاثةِ أسهمٍ: على اليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وذلك قولُ جماعةٍ من أهل العراق.

وقال آخرون: الخمسُ كله لقرابةِ رسولِ الله ﷺ.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا، أنَّ سهمَ رسولِ الله ﷺ مردودٌ في الخمس، والخمسُ مقسومٌ على أربعةِ أسهمٍ: للقرابةِ سهمٌ، ولليتامى سهم، وللمساكين سهم، ولابن السبيل سهم، لأنَّ الله أوجبَ الخُمسَ لأقوامٍ موصوفينَ بصفاتٍ، كما أوجبَ الأربعةَ الأخماس لآخرينَ. وقد أجمعوا أنّ حَقَّ الأربعةِ الأخماس لن يستحقه غيرهم، فكذلك حَقُّ أهلِ الخُمُسِ لن يستحقه غيرهم. فغيرُ جائزٍ أنْ يخرجَ عنهم إلى غيرِهم، كما غيرُ جائزٍ أنْ تخرجَ بعضُ السهمانِ التي جعلها الله لِمَنْ سَمَّاهُ في كتابه بفقدِ بعضِ مَنْ يستحقُّهُ، إلى غير أهلِ السهمانِ الأُخَر.

وأما «اليتامى»، فهم أطفالُ المسلمين الذين قد هلك آباؤهم.

و«المساكين»، هم أهلُ الفاقةِ والحاجةِ من المسلمين.

---

(١) أخرجه الطبري (١٦١١٩)، والشافعي في الأم: ٧١/٤، وأبو داود (٢٩٨٠)، وأبو عبيد في الأموال (٨٤٢) وإسناده صحيح.

و«ابن السبيل»، المجتاز سَفراً قد انقُطِعَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أيقِنُوا، أيها المؤمنونَ، أنَّ ما غنمتم من شيءٍ فمقسومٌ القَسْمَ الذي بَيَّنْتُهُ وصَدِّقُوا به، إنْ كنتم أَقْرَرْتُمْ بوحدانيةِ الله وبما أنزلَ الله على عبدِه محمدٍ ﷺ يومَ فَرّق بين الحَقِّ والباطلِ ببدر، فأبانَ فَلَجَ المؤمنينَ وظهورَهم على عَدُوِّهم، وذلك «يوم التقى الجمعانِ»، جمعُ المؤمنينَ وجمعُ المشركين، والله على إهلاكِ الكفرِ وإذلالِهم بأيدي المؤمنينَ، وعلى غيرِ ذلك مما يشاءُ. «قديرٌ»، لا يمتنع عليه شيءٌ أراده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَيْقِنُوا، أيها المؤمنونَ: واعْلَمُوا أنَّ قَسْمَ الغنيمةِ ما بيَّنه لكم رَبُّكم، إنْ كنتم آمنتم باللهِ وما أنزل على عبدِه يومَ بدر، إذْ فرقَ بين الحقِّ والباطلِ من نصرِ رسولِه. «إذْ أنتم»، حينئذٍ، «بالعُدْوَةِ الدنيا»، يقول: بشفيرِ الوادي الأدنى إلى المدينة. «وهُمْ بالعُدْوَةِ القُصوى»، يقول: وعَدُوُّكُمْ من المشركينَ نُزُولٌ بشَفيرِ الوادي الأقصى إلى مكة. «والركبُ أسفلَ منكم»، يقول: والعِيرُ فيه أبو سفيان وأصحابُه في موضعٍ أسفلَ منكم إلى ساحلِ البحر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾

الأنفال: ٤٢

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو كان اجتماعُكم في الموضعِ الذي اجتمعتَمْ فيه، أنتم أيها المؤمنون وعدوكم من المشركين، عن ميعَادٍ منكم ومنهم، «لاختلفتُمْ في الميعاد»، لكثرةِ عَدَدِ عَدُوِّكم، وقِلَّةِ عَدَدِكم، ولكنَّ الله جمعكم على غير ميعادٍ بينكم وبينهم. «ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً»، وذلك القضاءُ من الله، كان نَصْرَه أولياءَهُ من المؤمنينَ باللهِ ورسولِه، وهلاك أعدائه وأعدائِهم ببدرٍ بالقتلِ والأسر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولكنَّ اللهَ جمعهم هنالك، ليقضيَ أمراً كان مفعولاً. «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنة».

وهذه اللامُ في قوله: «ليهلك» مكررة على «اللام» في قوله: «ليقضي»، كأنه قال: ولكنْ ليهلكَ مَنْ هَلَكَ عن بينة، جَمَعكم.

ويعني بقوله: «ليهلك مَنْ هَلَكَ عن بينةٍ»، ليموتَ مَنْ ماتَ من خَلْقِه، عن حجةٍ لله قد أُثبتت له وقَطَعَتْ عُذْرَهُ، وعبرة قد عاينها ورآها. «ويحيا مَنْ حَيَّ عن بينةٍ»، يقولُ: وليعيشَ مَنْ عاشَ منهم عن حجةٍ لله قد أُثبتت له وظهرت لعينه فعلمها، جمعنا بينكم وبين عدوكم هنالك.

وأمـا قولـه: «وإنَّ الله لسميعٌ عليم»، فإنَّ معناه: «وإن الله»، أيها المؤمنـون، «لسميع»، لقـولكم وقـولِ غيركم، حين يُري الله نبيه في منامه ويريكم، عَدُوَّكم في أعينكم قليلاً وهُمْ كثيرٌ، ويراكم عَدُوُّكُمْ في أعينهم قليلاً. «عليم»، بما تُضْمِرُه نفوسُكم، وتنطوي عليه قلوبُكم، حينئذٍ وفي كُلِّ حالٍ.

يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ لهم ولعباده: فاتقوا رَبَّكم، أيها الناسُ، في مَنْطِقِكم:

أنْ تنطقُوا بغيرِ حَقٍّ، وفي قلوبكم: أن تعتقدوا فيها غيرَ الرُّشدِ، فإنَّ الله لا يَخْفَى عليه خافيةٌ من ظاهرٍ أو باطن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ الله، يا محمدُ، سميعٌ لما يقول أصحابُكَ، عليمٌ بما يُضْمِرُونَهُ، إذ يُرِيكَ اللهُ عدوكَ وعدوهم «في منامك قليلاً»، يقول: يُرِيكَهُمْ في نومكَ قليلاً، فتخبرهم بذلك، حتى قَوِيَتْ قلوبهم، واجترأوا على حربِ عَدُوِّهم، ولو أراكَ رَبُّكَ عَدُوَّكَ وعَدُوَّهم كثيراً، لفشلَ أصحابُكَ فَجَبُنُوا وخافوا، ولم يقـدروا على حربِ القومِ، ولتنازَعُوا في ذلك، ولكنَّ الله سَلَّمَهُم من ذلك بما أراكَ في منامك من الرؤيا، إنه عليمٌ بما تُجِنُّه الصدورُ، لا يَخْفَى عليه شيءٌ مما تضمره القلوبُ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «ولكنَّ الله سَلَّمَ».

فقال بعضهم: معناه: ولكن الله سَلَّمَ للمؤمنينَ أمرهم، حتى أظهرهم على عدوهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولكن الله سَلَّمَ أمرَهُ فيهم.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصوابِ عندي ما قاله ابنُ عباس، وهو أنَّ الله سَلَّمَ القومَ - بما أرى نَبِيَّه ﷺ في منامه - من الفشلِ والتنازعِ، حتى قويتْ قلوبُهم، واجترأوا على حربِ عَدُوِّهم. وذلك أنَّ قوله: «ولكن الله سلم»، عَقِيب قوله: «ولو أراكَهُمْ كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر»، فالذي هو أَوْلى بالخبر عنه

أنه سَلَّمَهُمْ منه جَلَّ ثناؤهُ ، ما كانَ مخوفاً منه لو لم يُرِ نبيَّهُ ﷺ من قِلَّةِ القومِ في منامه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإنَّ الله لسميعٌ عليم» إذْ يُري الله نبيه في منامه المشركين قليلاً، وإذْ يُريهم الله المؤمنينَ إذْ لقوهم في أعينهم قليلاً وهم كثيرٌ عَدَدُهم، ويُقَلِّلُ المؤمنينَ في أعينهم، ليتركوا الاستعدادَ لهم، فتهون على المؤمنين شوكتهم.

قوله: «ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً»، يقول جَلَّ ثناؤه: قَلَّلْتُكم، أيها المؤمنون، في أعينِ المشركين، وأَرَيْتُكُمُوهُمْ في أعينكم قليلاً، حتى يقضيَ الله بينكم ما قضى من قتال بعضِكم بعضاً، وإظهارِكم، أيها المؤمنون، على أعدائِكم من المشركينَ والظفرِ بهم، لتكونَ كلمةُ الله هي العليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفْلى. وذلك أمرٌ كان الله فاعلَه وبالغاً فيه أمرَه.

«وإلى الله تُرْجَعُ الأمور»، يقول جَلَّ ثناؤه: مصيرُ الأمورِ كُلّها إليه في الآخرة، فيجازي أهلها على قَدْرِ استحقاقِهم، المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾

وهذا تعريفٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ أهلَ الإيمانِ به، السيرةَ في حربِ أعدائه من أهلِ الكفرِ به، والأفعالَ التي يُرْجَى لهم باستعمالها عند لقائِهم النُّصْرَةَ عليهم والظفر بهم. ثم يقولُ لهم جَلَّ ثناؤُهُ: «يا أيها الذين آمنوا»، صَدَّقُوا الله ورسولَهُ - إذا لقيتم جماعةً من أهلِ الكفرِ للحربِ والقتال، فاثْبُتُوا لقتالهم، ولا تنهزمُوا عنهم ولا تُوَلُّوهم الأدبارَ هاربينَ، إلَّا مُتَحَرِّفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئةٍ منكم. «واذكُروا الله كثيراً»، يقولُ: وادْعُوا الله بالنصرِ عليهم والظفر بهم، وأشْعِرُوا قلوبَكُمْ وألسنتكم ذكره. «لعلكم تفلحون»، يقول: كيما تَنْجَحُوا فَتَظْفَرُوا بعدوِّكم، ويرزقكم اللهُ النصرَ والظفرَ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به: أطيعوا، أيها المؤمنون، رَبَّكم ورسولَهُ فيما أمرَكُمْ به ونَهاكم عنه، ولا تُخَالِفُوهُمَا في شيءٍ. «ولا تنازعوا فتفشلوا»، يقول: ولا تَخْتَلِفُوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم. «فتفشلوا»، يقول: فَتَضْعُفُوا وتَجْبُنُوا، «وتذهبَ رِيحُكم».

وهذا مثلٌ. يُقالُ للرجلِ إذا كان مُقْبِلاً ما يُحبُّه ويُسَرُّ به: «الريحُ مُقْبِلَةٌ عليه»، يعني بذلك: ما يحبه.

وإنما يُرادُ به في هذا الموضع: وتذهب قوتكم وبأسكم، فَتَضْعُفُوا ويدخلكم الوهنُ والخَللُ.

«واصبروا»، يقول: اصبروا مع نبيِّ الله ﷺ عند لقاءِ عَدُوِّكُم، ولا تَنْهزمُوا عنه وتتركُوهُ. «إنَّ الله مع الصابرين»، يقول: اصبروا فإني معكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

وهذا تقدُّمٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ إلى المؤمنينَ به وبرسولِه، أنْ لا يَعملُوا عملاً إلا لله خاصة، وطلبِ ما عِنْدَهُ، لا رِئاءَ الناسِ، كما فعلَ القومُ من المشركينَ في مسيرِهم إلى بدرٍ طلبَ رِئاء الناس. وذلك أنهم أُخْبِرُوا بفَوْتِ العِيرِ رسولَ الله ﷺ وأصحابه، وقيل لهم: «انصرفوا فقد سَلِمَت العِيرُ التي جِئْتُمْ لِنُصْرَتِها!»، فأبوا وقالوا: «نأتي بدراً فنشرب بها الخمرَ، وتعزفُ علينا القِيانُ، وتَتَحَدَّثُ بنا العربُ فيها»، فَسُقُوا مكانَ الخمرِ كؤوسَ المنايا.

فتأويل الكلام إذاً: ولا تكونُوا، أيها المؤمنونَ باللهِ ورسوله، في العملِ بالرياءِ والسمعةِ، وتركِ إخلاصِ العملِ لله، واحتسابِ الأجرِ فيه، كالجيشِ من أهلِ الكُفْرِ بالله ورسوله الذين خَرجُوا من منازِلهم بَطَراً ومراءاة الناسِ بزيِّهم وأموالهم وكثرةِ عددهم وشِدَّةِ بطانتهم. «ويَصُدُّونَ عن سبيلِ الله»، يقول: ويَمنعونَ الناسَ من دِينِ اللهِ والدخول في الإسلام، بقتالِهم إيَّاهم، وتعذيبهم مَنْ قَدَرُوا عليه من أهلِ الإيمانِ بالله. «والله بما يعملون»، من الرياءِ والصَّدِّ عن سبيلِ الله، وغيرِ ذلك من أفعالهم. «محيطٌ»، يقول: عالمٌ بجميعِ ذلك، لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ، وذلك أنَّ الأشياءَ كُلَّها له متجلِّيَةٌ، لا يعزبُ عنه منها شيءٌ، فهو لهم بها مُعَاقِبٌ، وعليها مُعَذِّبٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ

نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وإِذْ زَيَّنَ لهُمُ الشيطانُ أعمالهم»، وحين زَيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ أعمالَهم.

فتأويلُ الكلام: «وإنَّ الله لسميعٌ عليم»، في هذه الأحوالِ - وحين زَيَّنَ لهم الشيطانُ خُروجَهم إليكم، أيها المؤمنونَ، لحربِكم وقِتالِكم وحَسَّنَ ذلكَ لهم وحَثَّهُمْ عليكم، وقال لهم: لا غالبَ لكمُ اليومَ من بني آدمَ، فاطْمَئِنُّوا وأبْشِرُوا. «وإني جَارٌ لكم»، من كِنانَةَ أنْ تأتيَكُمْ من ورائِكم فَمُعِيذُكم، أُجِيْرُكُمْ وأَمْنَعُكُمْ منهم، فلا تَخَافُوهم، واجعلوا حَدَّكم وبأسَكُمْ على محمدٍ وأصحابه. «فلما تَراءتِ الفِئتانِ»، يقول: فلما تَزَاحفتْ جنودُ الله من المؤمنينَ وجنود الشيطان من المشركينَ، ونَظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ. «نَكَصَ على عقبيه»، يقول: رَجَعَ القَهْقَرى على قَفَاهُ هارباً. وقال للمشركين: «إني بريءٌ منكم إنِّي أرى ما لا تَرَوْنَ»، يعني أنه يرى الملائكةَ الذين بعثهم الله مَدَداً للمؤمنينَ، والمشركون لا يَرَوْنَهُمْ - إني أخافُ عقابَ الله، وكذب عدوُّ الله. «والله شديد العقاب».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإنَّ الله لسميعٌ عليم»، في هذه الأحوالِ. «وإذ يقولُ المنافقون»، وكرَّ بقوله: «إذْ يقول المنافقون»، على قوله: «إذْ يُرِيكَهُمُ الله في مَنامِكَ قليلاً»، «والذين في قلوبهم مرض»، يعني: شَكٌّ في الإسلام، لِم

يَصحَّ يَقِينُهم، ولم تُشْرَحْ بالإيمانِ صُدورُهم. «غَرَّ هؤلاءِ دِينُهم»، يقول: غَرَّ هؤلاءِ الذين يُقاتِلُونَ المشركينَ من أصحابِ محمدٍ ﷺ من أنفسِهم، دِينُهم وذلك الإسلام.

وذُكِرَ أنَّ الذين قالوا هذا القولَ، كانوا نَفَراً مِمَّنْ كان قد تَكَلَّمَ بالإسلامِ من مشركي قريش، ولم يَسْتَحْكِم الإسلامُ في قلوبهم.

وأما قوله: «ومَنْ يَتوكَّلْ على الله»، فإنَّ معناه: ومَنْ يُسْلِمْ أمْرَهُ إلى الله، ويَثِقْ به، ويَرْضَ بقضائه، فإنَّ اللهَ حافظُه وناصِرُه لأنه «عزيزٌ»، لا يغلبُه شيءٌ، ولا يقهرهُ أحدٌ، فجارُه مَنِيعٌ، ومَنْ يتوكَّلْ عليه مكفيٌّ.

وهذا أمرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ المؤمنينَ به من أصحابِ رسولِ الله وغيرِهم، أنْ يُفَوِّضُوا أمْرَهُمْ إليه، ويُسَلِّمُوا لقضائِه، كيما يَكْفِيهم أعداءَهُمْ، ولا يَسْتَذِلُّهُمْ مَنْ نَاوَأَهُمْ، لأنه «عزيزٌ» غيرُ مغلوبٍ، فجارُه غيرُ مقهورٍ. «حكيمٌ»، يقول: هو فيما يُدَبِّرُ من أمرِ خَلْقِهِ حكيمٌ، لا يدخلُ تدبيرَهُ خَلَلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولو تُعَايِنُ، يا محمدُ، حين يتوفَّى الملائكةُ أرواحَ الكُفَّارِ، فتنزعُها من أجسادِهم، تَضْرِبُ الوجوهَ منهم والأَسْتَاه، ويقولون لهم: ذُوقُوا عذابَ النار التي تحرقكم يومَ وُرُودِكم جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، مُخْبراً عن قِيْلِ الملائكةِ لهؤلاءِ المشركينَ الذين قُتِلُوا ببـدرٍ، أنهم يقولونَ لهم وهم يَضربُونَ وجوهَهُمْ وأدبارهم: «ذُوقُوا عذابَ الله الذي يحرقكم»، هذا العذابُ لكم. «بما قَدَّمَتْ أيديكم»، أي: بما كسبت أيديكم من الآثامِ والأوزارِ، واجترحتُمْ من معاصي الله أيامَ حياتِكم، فذوقوا اليومَ العذابَ، وفي مَعادِكم عذابَ الحريق، وذلك لكم بأنَّ الله «ليسَ بِظَلَّامٍ للعبيد»، لا يعاقبُ أحداً من خَلْقِه إلا بجرمٍ اجترَمَهُ، ولا يُعَذِّبه إلا بمعصيتهِ إياهُ لأنَّ الظلمَ لا يجوزُ أنْ يكونَ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فِعْلُ هؤلاءِ المشركينَ من قريش الذين قُتِلُوا ببدر، كعادةِ قومِ فرعون وصنيعهم وفِعْلِهم وفِعْلِ مَنْ كذَّبَ بحججِ الله ورُسُلِه من الأممِ الخاليةِ قَبْلَهُمْ، فَفَعَلْنا بهم كَفِعْلِنا بأولئكَ.

وقوله: «فأخَذَهُم الله بذنوبهم»، يقول: فعاقَبهُمُ اللهُ بتكذِيبهم حُجَجَهُ ورُسُلَهُ ومعصيتهم رَبَّهم، كما عاقبَ أشكالهم والأممَ الذين قَبْلَهُمْ. «إنَّ الله قويٌّ»، لا يغلبه غالبٌ، ولا يَرُدُّ قضاءَهُ رادٌّ، يُنْفِذ أمْرَهُ، ويُمْضِي قضاءه في خَلْقِه ـ شديدٌ عِقابهُ لِمَنْ كفَرَ باللهِ وجَحَدَ حُججه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأخذنا هؤلاءِ الذين كَفَرُوا بآياتنا من مشركي قريش ببدرٍ بذنوبِهم، وفعلنا ذلكَ بهم، بأنهم غَيَّرُوا ما أنعمَ اللهُ عليهم به من ابتعاثه

رسولَهُ منهم وبينَ أَظْهُرِهم، بإخراجِهم إياهُ من بينهم، وتكذيبهم له، وحَرْبهم إياهُ، فَغَيَّرنَا نِعْمَتَنا عليهم بإهلاكِنَا إياهم، كَفِعْلِنَا ذلك في الماضينَ قَبْلهم ممن طَغَى علينا وعَصَى أَمْرَنَا.

وقوله: «وأن الله سميع عليم»، يقول: لا يَخْفَى عليه شيءٌ من كلامِ خَلْقِه، يسمعُ كلامَ كُلِّ ناطقٍ منهم بخيرٍ نَطَقَ أو بشرٍّ. «عليمٌ»، بما تُضْمِرُه صُدورُهم، وهو مُجَازِيهم ومُثِيبُهم على ما يَقُولونَ ويعملونَ، إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شرًّا فشرًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: غَيَّرَ هؤلاءِ المشركونَ بالله، المقتولونَ ببدرٍ، نِعمةَ رَبِّهم التي أنعم بها عليهم، بابتعاثِه محمداً منهم وبين أظهرهم، داعياً لهم إلى الهـدى، بتكذِيبهم إياهُ، وحَرْبهم له، «كدأب آلِ فرعون» كَسُنَّةِ آلِ فرعون وعادَتِهم وفِعْلِهم بموسى نبيِّ الله، في تكذِيبهم إياهُ وقَصْدِهم لحرْبه، وعادةِ مَنْ قَبْلَهُمْ من الأممِ المُكَـذِّبـةِ رُسُلَهـا وصَنِيعِهم، «فأهلكناهم بذنوبهم»، بَعْضاً بالرجفةِ، وبعضاً بالخَسْفِ، وبعضاً بالرِّيح، «وأغرقنا آلَ فرعون»، في اليَمِّ، «وكُلٌّ كانوا ظالمينَ»، يقول: كُلُّ هؤلاءِ الأممِ التي أهلكناها كانوا فاعلينَ ما لم يَكُنْ لهم فِعْلُه، من تَكْذِيبهم رُسُلَ الله، والجحود لآياته. فكذلك أهلكنا هؤلاءِ الـذينَ أهلكنـاهم ببدرٍ، إذْ غَيَّرُوا نعمةَ الله عندهم، بالقتلِ بالسيفِ، وأذللنا بعضَهم بالإسارِ والسِّبَاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ﴾

﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ شَرَّ ما دَبَّ على الأرضِ عندَ الله، الذين كَفَرُوا بربِّهم، فَجَحَدُوا وحدانيَّتَهُ، وعَبَدُوا غيرَهُ، «فهم لا يؤمنون»، يقول: فهم لا يُصَدِّقونَ رُسُلَ الله، ولا يُقِرُّون بوحيِهِ وتنزيله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ شَرَّ الدوابِّ عند الله الذين كفروا»، «الذينَ عاهدتَ منهم»، يا محمدُ، يقول: أخذتَ عُهودَهُمْ ومواثِيقَهُمْ أنْ لا يحاربوكَ، ولا يُظَاهِرُوا عليكَ مُحَارِباً لكَ، كَقريظةَ ونُظَرائِهم مِمَّنْ كانَ بينكَ وبينهم عَهْدٌ وعَقْدٌ، «ثم ينقضون»، عهودَهُم ومواثيقهم كلما عاهدوكَ وواثقوكَ، حاربوكَ وظاهَرُوا عليك، وهم لا يَتَّقُونَ الله، ولا يخافون في فِعْلهم ذلك أن يوقع بهم وقعةً تجتاحهم وتهلكهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فإمَّا تَلْقَيَنَّ في الحرب هؤلاء الذين عاهَدْتَهم فَنَقَضُوا عَهْدَكَ مرةً بعد مرةٍ من قريظة، فتأسرهم. «فَشَرِّدْ بهم مَنْ خَلْفَهم»، يقول: فافعلْ بهم فِعلاً يكون مشرِّداً مَنْ خَلْفَهُمْ من نُظَرائِهم، مِمَّنْ بينكَ وبينه عَهْدٌ وعقد.

«التشريدُ»، التَّطرِيدُ والتبديدُ والتَّفريقُ.

وإنما أمِرَ بذلك نبيُّ اللهِ ﷺ أنْ يفعلَ بالناقضِ العهدَ بينه وبينهم إذا قدرَ عليهم، فِعْلاً يكونُ إخافةً لمن وراءَهُمْ، مِمَّنْ كانَ بين رسولِ الله ﷺ وبينه عَهْـدٌ، حتى لا يَجْتَرِئُوا على مِثْلِ الذي اجترأ عليه هؤلاءِ الذين وَصَفَ اللهُ صِفَتهم في هذه الآيةِ من نقضِ العهدَ.

وأما قوله: «لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرون»، فإنَّ معناه: كي يَتَّعِظُوا بما فعلتُ بهؤلاء الذين وصفتُ صِفَتَهُم، فَيَحْذَرُوا نقضَ العهدِ الذي بينكَ وبينهم خوفَ أنْ ينزلَ بهم منكَ بهؤلاءِ إذا هُمْ نَقَضُوه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإمَّا تَخافَنَّ»، يا محمدُ، من عَدُوٍّ لكَ بينك وبينَهُ عهدٌ وعَقْدٌ، أنْ ينكثَ عهده، ويَنْقُضَ عقده، ويَغْدُرَ بكَ ـ وذلك هو «الخيانة» والغدر ـ «فانْبِذْ إليهم على سواء»، يقول: فَنَاجِزْهُمْ بالحربِ، وأَعْلِمْهُمْ قبلَ حربكَ إياهم أنكَ قد فسختَ العهدَ بينك وبينهم، بما كانَ منهم من ظهورِ أمارِ[1] الغدرِ والخيانةِ منهم، حتى تصيرَ أنتَ وهُمْ على سواءٍ في العلم بأنكَ لهم محـاربٌ، فيأخـذوا للحـربِ آلتَهـا، وتبرأ من الغدر. «إنَّ الله لا يحبُّ الخائنين»، الغادرينَ بِمَنْ كان منه في أمانٍ وعهدٍ بينه وبينه أنْ يغدرَ به فيحارِبَهُ، قبلَ إعلامِهِ إيَّاهُ أنه له حَرْبٌ، وأنه قد فَاسَخَهُ العقدَ.

فإنْ قال قائلٌ: وكيفَ يجوزُ نَقْضُ العهدِ بخوفِ الخيانةِ، و«الخوفُ» ظَنٌّ لا يَقِينٌ؟

قيل: إنَّ الأمـرَ بخـلافِ ما إليه ذهبتَ، وإنما معناه: إذا ظهرت أمارُ

---

(١) الأمار، والأمارة: العَلامةُ، ويقال: «أمار» جمع «أمارة».

الخيانـةِ من عَدُوِّك، وخِفْتَ وقـوعَهُمْ بكَ، فألْقِ إليهم مقاليدَ السَّلم وآذِنْهُمْ بالحربِ. وذلك كالذي كان من بني قريظة إذْ أجابوا أبا سفيانَ ومَنْ مَعَهُ من المشركينَ إلى مُظَاهَرتِهم على رسولِ الله ﷺ ومحارَبَتِهم معهم، بعد العهدِ الذي كانوا عَاهَدُوا رسولَ الله ﷺ على المسالمةِ، ولن يقاتِلُوا رسولَ الله ﷺ. فكانت إجَابَتُهم إياهُ إلى ذلكَ، مُوجِباً لرسولِ الله ﷺ خوفَ الغدرِ به وبأصحابهِ منهم. فكذلك حُكْمُ كُلِّ قومٍ أهلِ موادعةٍ للمؤمنينَ، ظهرَ لإمامِ المسلمينَ منهم من دلائلِ الغدرِ مثل الذي ظهرَ لرسولِ الله ﷺ وأصحابه من قريظَةَ منها، فَحَقٌّ على إمامِ المسلمينَ أنْ ينبذَ إليهم على سواء، ويُؤْذِنَهُمْ بالحربِ.

ومعنى قوله: «على سواء»، أي: حتى يستوي عِلْمُكَ وعِلْمُهم بأنَّ كُلَّ فريقٍ منكم حَرْبٌ لصاحبِه لا سِلْمٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ الحجاز والعراق: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ﴾، بكسرِ الألفِ من «إنهم»، وبالتاء في «تحسبنَّ» بمعنى: ولا تحسبن، يا محمدُ، الذين كفروا سَبَقُونَا فَفَاتُونَا بأنفسِهم. ثم ابْتُدِىءَ الخبرُ عن قُدْرَةِ اللهِ عليهم فقيل: إنَّ هؤلاءِ الكَفَـرَةَ لا يُعْجِزُونَ رَبَّهم، إذا طلبهم وأرادَ تَعْذِيبَهُمْ وإهلاكَهم، بأنفسهم فيفوتوهُ بها.

وقـرأ ذلك بعضُ قَرَأَةِ المدينةِ والكوفةِ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، بالياء في «يحسبن» وكسر الألف من ﴿إِنَّهُمْ﴾.

وهي قراءةٌ غير حميدة[1]، لمعنيين، أحدهما: خُروجُهَا من قراءةِ القَرَأَةِ وشذوذها عنها، والآخر: بُعْدَها من فصيحِ كلامِ العربِ. وذلك أن «يحسب» يطلب في كلام العرب منصوباً وخبره، كقوله: «عَبْدُ الله يحسبُ أخاكَ قائماً» و«يقـوم» و«قام». فقارىءُ هذه القراءةِ أصْحَبَ «يحسب» خبراً لغيرِ مُخْبَرٍ عنه مذكـور. وإنمـا كان مُرادُه، ظَنِّي: ولا يحسبنَّ الـذين كفـروا سبقوا إنهم لا يُعْجِزُونَنَا فلم يُفَكِّرْ في صوابِ مخرجِ الكلامِ وسُقْمِه، واستعمل في قراءته ذلك كذلـك، ما ظهرَ له من مفهومِ الكلام. وأحسبُ أن الذي دَعَاهُ إلى ذلك، الاعتبارُ بقراءةِ عبدالله. وذلك أنه فيما ذكر في مصحف عبدالله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾، وهذا فصيحٌ صحيحٌ، إذا أدخلت «أنهم» في الكلام، لأنَّ «يحسبن» عاملةٌ في «أنهم»، وإذا لم يكن في الكلام «أنهم» كانت خاليةً من اسم تعملُ فيه.

والـذي قرأ ذلـك من القَـرَأَةِ وجهانِ في كلامِ العرب، وإنْ كانا بَعِيدَيْنِ من فصيحِ كلامِهم:

أحدهما أنْ يكونَ أُريدَ به: ولايَحْسَبَنَّ الذينَ كَفَرُوا أنْ سَبَقُوا، أو: أنهم سبقوا، ثم حذف «أن» و«أنهم»، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾، [الروم: ٢٤]، بمعنى: أنْ يُريكم.

والوجه الثاني على أنه أراد إضمارَ منصوب بـ«يحسب»، كأنه قال: ولا يحسب الذين كفروا أنهم سبقوا ثم حذف «أنهم» وأضمر.

وقد وجَّه بعضُهم معنى قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾، [آل عمـران: ١٧٥]: إنمـا ذلكمِ الشيطانُ يخـوف المؤمنَ من أوليائـه، وأنَّ ذِكْرَ «المؤمن» مُضْمَرٌ في قوله: «يُخَوِّفُ»، إذْ كان الشيطانُ عنده لا يخوِّفُ أولياءه.

---

(١) هذه القراءة التي رَدَّها أبو جعفر، وقال بأنها غير حميدة هي قراءتنا اليوم.

وقرأ ذلك بعضُ أهلِ الشأم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالتاء من «تحسبن» ﴿سَبَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾، بفتحِ الألفِ من «أنهم»، بمعنى: ولا تحسبن الذين كفروا أنهم لا يعجزون.

ولا وجهَ لهذه القراءةِ يُعقلُ، إلَّا أنْ يكونَ أرادَ القارئُ بـ«لا» التي في «يعجزون»، «لا» التي تدخلُ في الكلامِ حَشْواً وصِلَةً، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: ولا تَحْسَبَنَّ الذين كفروا سبقوا أَنَّهم يُعْجِزُونَ. ولا وجهَ لتوجيهِ حرفٍ في كتابِ الله إلى التطويل، بغيرِ حُجَّةٍ يجبُ التسليمُ لها، وله في الصِحَّةِ مخرجٌ.

والصوابُ من القراءة في ذلك عندي، قراءةُ مَنْ قرأ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾، بالتاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ﴾، بكسر الألفِ من «إنهم»، ﴿لَا يُعْجِزُونَ﴾، بمعنى: ولا تحسبن أنتَ، يا محمدُ، الذين جَحَدُوا حُجَجَ الله وكَذَّبُوا بها، سَبَقُونَا بأنفسِهم ففاتونا، إنهم لا يعجزوننا ـ أي يفوتوننا بأنفسهم، ولا يقدرون على الهربِ منا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

يقول تعالى ذِكْرُه: «وأَعِدُّوا»، لهؤلاءِ الذيمَ كَفَرُوا بربِّهم، الذينَ بينَكُمْ وبينهم عَهْدٌ. إذا خِفْتُمْ خيانَتَهُمْ وغَدْرَهُمْ، أيها المؤمنونَ باللهِ ورسوله. «ما استطعتم من قوة»، يقول: ما أَطَقْتُمْ أنْ تُعِدُّوهُ لهم من الآلاتِ التي تكونُ قوةً لكم عليهم، من السلاحِ والخيلِ. «تُرْهِبُونَ به عَدُوَّ اللهِ وعدوكم»، يقول: تُخِيفُونَ بإعدادِكم ذلك عَدُوَّ الله وعَدُوَّكم من المشركينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ

اختلف أهلُ التأويل في هؤلاء «الآخرين»، مَنْ هم، وما هم؟

فقال بعضهم: هم بنو قريظة.

وقال آخرون: من فارس.

وقال آخرون: هُمْ كُلُّ عَدُوٍّ للمسلمينَ، غير الذين أمرَ النبيُّ ﷺ أنْ يُشَرِّدَ بهم مَنْ خَلْفَهُمْ. قالوا: وهم المنافقون.

وقال آخرون: هم قومٌ من الجنِّ.

والصوابُ من القـولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّ الله أمرَ المؤمنينَ بإعدادِ الجهادِ وآلةِ الحربِ وما يَتَقَوَّوْنَ به على جهادِ عَدُوِّهِ وعَدُوِّهم من المشركينَ، من السـلاحِ والـرمي وغير ذلك، ورباطِ الخيلِ ـ ولا وجهَ لأَنْ يُقالَ: عَنى بـ«القوة» معنًى دونَ معنى من معاني «القوة»، وقد عَمَّ اللهُ الأمرَ بها.

وأما قوله: «وآخرينَ من دُونِهم لا تَعْلَمُونَهم»، فإنَّ قولَ مَنْ قالَ: عَنَى به الجِنَّ، أقربُ وأشبهُ بالصواب، لأنه جَلَّ ثناؤُهُ قد أدخلَ بقوله: «ومِنْ رِباطِ الخيلِ تُرْهبون به عَدُوَّ الله وعَدُوَّكُمْ»، الأمرَ بارتباطِ الخيلِ لإرهابِ كُلِّ عدوٍّ للهِ وللمؤمنينَ يعلمونهم. ولاشَكَّ أنَّ المؤمنينَ كانوا عالمينَ بعداوةِ قريظةَ وفارِسَ لهم، لِعِلْمِهم بأنَّهم مُشركونَ، وأنهم لهم حَرْبٌ. ولا معنى لأَنْ يقالَ، وهم يعلمونهم لهم أعداءً: «وآخرينَ من دُونهم لا تعلمونهم»، ولكن معنى ذلك إنْ شاء الله: تُرهبونَ بارتباطِكم، أيها المؤمنونَ، الخيلَ عدوَّ الله وأعداءَكُمْ من بني آدمَ الذين قد علمتم عَداوتَهُمْ لكم، لِكُفْرِهم باللهِ ورسوله، وتُرهبونَ بذلك جنساً آخرَ من غيرِ بني آدم، لا تعلمونَ أماكنهم وأحوالَهم، اللهُ يعلمهم دُونَكُمْ، لأنَّ

بني آدم لا يرونهم. وقيل: إنَّ صهيلَ الخيلِ يرهبُ الجِنَّ، وأنَّ الجِنَّ لا تقربُ داراً فيها فَرَسٌ[1].

فإنْ قالَ قائلٌ: فإنَّ المؤمنينَ كانوا لا يعلمونَ ما عليهِ المنافقونَ، فما تُنْكِرُ أنْ يكونَ عُنِيَ بذلك المنافقون؟

قيل: فإنَّ المنافقينَ لم يَكُنْ تَرُوعُهم خَيْلُ المسلمينَ ولا سلاحهم، وإنما كانَ يَرُوعهم أنْ يظهرَ المسلمونَ على سَرَائِرِهم التي كانوا يَسْتَسِرُّونَ من الكُفْرِ، وإنما أُمِرَ المؤمنونَ بإعدادِ القوةِ لإرهابِ العدوِّ، فأما مَنْ لم يرهبه ذلك، فغيرُ داخلٍ في معنى مَنْ أُمِرَ بإعدادِ ذلك له المؤمنون. وقيل: «لا تعلمونهم»، فاكتفى لـ«العلم»، بمنصوبٍ واحدٍ في هذا الموضع، لأنه أُريدَ: لا تَعْرِفُونَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وما أنفقتم، أيها المؤمنونَ، من نفقةٍ في شراءِ آلةِ حَرْبٍ من سلاحٍ أو حِرَابٍ أو كُرَاعٍ أو غير ذلك من النفقاتِ، في جهادِ أعداءِ الله المشركينَ يُخلفُه اللهُ عليكم في الدنيا، ويُدَّخَرُ لكم أجورَكُم على ذلك عِنْدَهُ حتى يُوَفِّيكُمُوهَا يومَ القيامةِ. «وأنتم لا تظلمون»، يقول: يفعلُ ذلكَ بكم رَبُّكم، فلا يضيعُ أُجورَكم عليه.

---

(١) قوله: «وقيل: إن صهيل الخيل. . . إلخ» مأخوذٌ من حديث نُسِبَ إلى رسول الله ﷺ لا يَصحُّ إسناداً ولا متناً، ولذلك رَدَّ ابن كثير وغيره تفسيرَ الطبري هذا، ورَجَّحُوا أنَّ المقصودَ بذلك هم المنافقونَ (تفسير القرطبي: ٣٨/٨، وتفسير أبي حيان: ٥١٣/٤).
والأَوْلى أنها عامةٌ لا تخصصُ بفئة معينة.

الأنفال: ٦١

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإمَّا تخافنَّ من قومٍ خيانةً وغدْراً، فانبذْ إليهم على سواء، وآذِنْهُمْ بالحربِ. «وإن جَنَحُوا للسلم فاجنحْ لها»، وإنْ مَالُوا إلى مُسَالَمتكَ ومُتَارَكَتِكَ الحربَ، إمَّا بالدخول في الإسلام، وإما بإعطاءِ الجزية، وإما بموادعةٍ، ونحوِ ذلك من أسبابِ السلمِ والصلحِ. «فاجنحْ لها»، يقول: فَمِلْ إليها، وابْذُلْ لهم ما مَالُوا إليه من ذلكَ وسَأَلُوكَهُ.

فأما ما قاله قتادة ومَنْ قالَ مِثْلَ قولِه، من أنَّ هذه الآيةَ منسوخةٌ، فقولٌ لا دلالةَ عليه من كتابٍ ولا سنةٍ ولا فطرةِ عقلٍ.

وقد دللنا في غير موضعٍ من كتابنا هذا وغيره على أنَّ الناسخَ لا يكونُ إلا ما نفى حُكْمَ المنسوخِ من كُلِّ وجه. فأما ما كانَ بخلافِ ذلك، فغيرُ كائنٍ ناسخاً.

وقول الله في براءة: ﴿فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم﴾، غير نافٍ حكمُه حُكْمَ قوله: «وإنْ جَنَحُو للسَّلْمِ فاجنحْ لها»، لأنَّ قوله: «وإنْ جنحوا للسلم»، إنما عُنِيَ به بنو قريظة، وكانوا يهوداً أهلَ كتابٍ، وقد أَذِنَ اللهُ جَلَّ ثناؤُهُ للمؤمنينَ بصلحِ أهلِ الكتابِ ومُتَارَكَتِهم الحربَ على أخذِ الجزيةِ منهم.

وأما قوله: ﴿فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ فإنما عُنِيَ به مُشركُو العربِ من عَبَدَةِ الأوثانِ، الذين لا يجوزُ قبولُ الجزيةِ منهم. فليس في إحدى الآيتين نفي حكم الأخرى، بل كل واحدة منهما محكمةٌ فيما أُنزِلَتْ فيه.

وأما قوله: «وتوكل على الله»، يقول: فَوِّضْ إلى الله، يا محمدُ، أمرَكَ، واسْتَكْفِه، واثقاً أنه يَكْفيكَ.

وقوله: «إنه هُوَ السميعُ العليم»، يعني بذلك: إنَّ الله الذي تتوكَّلُ عليه، «سميعٌ»، لما تقولُ أنتَ ومَنْ تُسالِمُهُ وتُتارِكُهُ الحربَ من أعداءِ الله وأعدائِكَ عند عَقْدِ السلم بينكَ وبينه، وما يشترطُ كلُّ فريقٍ منكم على صاحبه من الشروطِ. «العليم»، بما يُضْمِرُه كُلُّ فريقٍ منكم للفريقِ الآخرِ من الوفاءِ بما عَاقَدَهُ عليه، ومَنِ المُضْمِرَ ذلك منكم في قلبِه، والمنطوي على خِلَافِه لصاحِبِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وإنْ يُرد، يا محمدُ، هؤلاءِ الذينَ أَمَرْتُكَ بأنْ تَنْبذَ إليهم على سواء إنْ خِفْتَ منهم خيانةً، وبمسالمتهم إنْ جَنَحُوا للسلْم، خداعَك والمكـرَ بكَ. «فإنَّ حَسْبَكَ اللهُ»، يقول: فإنَّ الله كافِيْكَهُمْ وكافيكَ خِدَاعَهُمْ إياكَ، لأنَّهُ مُتَكَفِّلٌ بإظهارِ دِينكَ على الأديانِ، ومُتَضَمِّنٌ أنْ يجعلَ كلمتَهُ العليا وكلمةَ أعدائِه السُّفْلى. «هو الذي أيَّدَكَ بنصرِه»، يقول: الله الذي قَوَّاكَ بنصره إياكَ على أعدائِه. «وبالمؤمنين»، يعني: بالأنصار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٣﴾

يُريدُ جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وألَّفَ بين قلوبِهم»، وجمعَ بين قلوبِ المؤمنينَ من الأوسِ والخـزرج، بعد التَّفرُّقِ والتَّشتُّتِ، على دِينهِ الحق، فَصَيَّرهُمْ به جميعاً بعد أنْ كانوا أشتاتاً، وإخواناً بعد أنْ كانُوا أعداء.

وقوله: «لو أنفقتَ ما في الأرضِ جميعاً ما أَلَّفْتَ بين قلوبِهم»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: لو أنفقتَ، يا محمدُ، ما في الأرضِ جميعاً من ذهبٍ ووَرَقٍ وعَرَضٍ، ما جمعتَ أنتَ بين قُلوبهم بِحَيْلِكَ[1]، ولكنَّ الله جَمَعَها على الهدى فَأْتَلَفَتْ واجْتَمَعَتْ، تَقْوِيةً من الله لكَ وتأييداً منه ومعونةً على عَدُوِّكَ. يقول جَلَّ ثناؤُه: والذي فعلَ ذلك وسَبَّبَهُ لكَ حتى صَارُوا لكَ أعواناً وأنصاراً ويَداً واحدة على مَنْ بَغَاكَ سوءاً، هو الذي إنْ رامَ عدوٌّ منكَ مراماً يكفيكَ كَيْدَهُ وينصركَ عليه. فَثِقْ به، وامْضِ لأمرِه، وتَوَكَّلْ عليه.

وقوله: «إنه عزيزٌ حكيم»، يقول: إنَّ الله الذي أَلَّفَ بين قلوبِ الأوسِ والخَزْرَجِ بعد تَشَتُّتِ كَلِمَتِهِمَا وتَعَادِيهما، وجَعْلهم لكَ أنصاراً. «عزيزٌ»، لا يقهره شيءٌ، ولا يَرُدُّ قضاءَهُ رَادٌّ، ولكنه ينفذ في خلقه حُكْمه. يقول: فعليه فتوكَّلْ، وبه فَثِقْ. «حكيم»، في تدبير خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «يا أيها النبيُّ حَسْبُكَ الله»، وحَسْبُ مَن اتَّبعكَ من المؤمنينَ، الله. يقول لهم جَلَّ ثناؤُهُ: ناهِضُوا عَدُوَّكُمْ، فإنَّ الله كافِيكُمْ أمْرَهُمْ، ولا يَهُولَنَّكُمْ كثرةُ عَدَدِهم وقِلَّة عَدَدِكُم، فإنَّ الله مُؤَيِّدُكُم بنصرِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم

(١) الحَيْلُ: القوة، مثل الحَوْل. وفي الحديث: «اللهم ذا الحَيْلِ الشديد».

﴿مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝٦٥ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «يا أيها النبيُّ حَرِّضِ المؤمنينَ على القتال»، حُثَّ مُتَّبعيكَ ومُصَدِّقيكَ على ما جِئْتَهُمْ به من الحق، على قتالِ مَنْ أدبـرَ وتــولَّى عن الحقِّ من المشـركينَ. «إنْ يَكُنْ منكم عِشـرونَ» رجـلاً. «صـابـرونَ»، عند لقاءِ العَدُوِّ، ويحتسبونَ أنفُسَهم ويَثْبُتونَ لعدوهم. «يَغْلِبُوا مئتين»، من عَدُوِّهم ويقهروهم. «وإنْ يَكُنْ منكم مئةٌ»، عند ذلك «يغلبوا» منهم «ألفاً». «بأنهم قومٌ لا يفقهون»، يقول: من أجْلِ أنَّ المشركينَ قومٌ يقاتلون على غيرِ رجاءِ ثوابٍ، ولا لطلبِ أجرٍ ولا احتسابٍ، لأنهم لم يَفْقهوا أنَّ الله مُوجبٌ لِمَنْ قاتلَ احتساباً، وطَلَبَ موعودَ الله في الميعاد، ما وَعَدَ المجاهدينَ في سبيلِه، فهم لا يثبتـون إذا صَدَقُـوا في اللقـاء، خشيةَ أنْ يُقْتَلُوا فتذهبَ دُنْياهُمْ. ثم خَفَّفَ تعالى ذِكْرُه عن المؤمنينَ، إذْ عَلِمَ ضَعْفَهُمْ فقالَ لهم: «الآنَ خَفَّفَ اللهُ عنكم وعَلِمَ أنَّ فيكم ضَعْفاً»، يعني: أنَّ في الواحدِ منهم عن لقاءِ العشرة من عَدُوِّهم ضَعْفاً. «فإنْ يَكُنْ منكم مِئَةٌ صابرة»، عند لقائِهم للثباتِ لهم. «يَغْلِبُوا مئتين» منهم. «وإنْ يَكُنْ منكم ألفٌ يغلبوا ألفين» منهم. «بإذنِ الله»، يعني: بتخليةِ اللهِ إياهم لغلبتهم، ومعونتِه إياهم. «والله مع الصابرين»، لِعَدُوِّهم وعَدُوِّ الله، احتساباً في صبره، وطلباً لجزيلِ الثوابِ من رَبِّه، بالعونِ منه له، والنصر عليه.

وهذه الآية أعني قوله: «إنْ يَكُنْ منكم عِشْرونَ صابرون يغلبوا مئتين» وإنْ كان مخرجها مخرجَ الخبر، فإنَّ معناها الأمر. يدلُّ على ذلك قولُه: «الآن خَفَّفَ اللهُ عنكم»، فلم يَكُنِ التخفيفُ إلا بعد التثقيلِ. ولو كان ثبوت العشرةِ منهم

للمئةِ من عَدُوِّهم كان غيرَ فَرْضٍ عليهم قبلَ التخفيفِ، وكانَ نَدْباً، لم يَكُنْ للتخفيفِ وَجْهٌ، لأنَّ التخفيفَ إنما هو ترخيصٌ في تَرْكِ الواحدِ من المسلمينَ الثبوتَ للعشرةِ من العدوِّ. وإذا لم يكن التشديدُ قد كانَ له مُتقدِّماً، لم يَكُنْ للترخيصِ وَجْهٌ، إذْ كان المفهومُ من الترخيصِ إنما هو بعدَ التشديدِ. وإذْ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنَّ حُكْمَ قوله: «الآنَ خَفَّفَ اللهُ عنكم وعَلِمَ أنَّ فيكم ضَعْفاً»، ناسخٌ لِحُكْمِ قولِه: «إنْ يَكُنْ منكم عِشْرونَ صابرونَ يغلبوا مئتين وإنْ يكن منكم مئةٌ يَغْلِبُوا ألفاً من الذينَ كفروا». وقد بَيَّنَّا في كتابنا «كتاب البيان عن أصول الأحكام»، أنَّ كُلَّ خبرٍ من الله وَعَدَ فيه عِبادَهُ على عملٍ ثواباً وجزاء، وعلى تَرْكِه عقاباً وعذاباً، وإنْ لم يَكُنْ خارجاً ظاهرُه مخرجَ الأمرِ، ففي معنى الأمرِ بما أغنى عن إعادَتِه في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما كانَ لنبيٍّ أنْ يَحْتَبِسَ كافراً قدرَ عليه وصارَ في يَدِه من عَبَدَةِ الأوثانِ للفداءِ أو للمَنِّ.

وإنما قال الله جَلَّ ثناؤُهُ [ذلك] لنبيه محمدٍ ﷺ، يُعَرِّفُه أنَّ قَتْلَ المشركينَ الذين أَسَرُهُم ﷺ يومَ بدرٍ ثم فَادَى بهم، كان أَوْلى بالصوابِ مِنْ أَخْذِ الفديةِ منهم وإطلاقهم.

وقوله: «حتى يُثْخِنَ في الأرضِ»، يقول: حتى يُبالِغَ في قَتْلِ المشركينَ فيها، ويَقْهَرَهُمْ غَلَبَةً وقَسْراً.

يقال منه: «أثخنَ فلانٌ في هذا الأمرِ»، إذا بالغَ فيه. وحُكيَ: «أثْخَنْتُه مَعْرِفةً»، بمعنى: قَتَلْتُه معرفةً.

«تريدون»، يقولُ للمؤمنين من أصحابِ رسولِ الله ﷺ: «تريدون»، أيها المؤمنونَ، «عَرَضَ الدنيا»، بأسْرِكم المشركينَ وهو ما عَرَضَ للمرءِ منها من مالٍ ومتاع. يقول: تُريدُونَ بأخْذِكم الفِداءَ من المشركينَ متاعَ الدنيا وطُعْمَها. «واللهُ يريدُ الآخرة»، يقولُ: والله يُريدُ لكم زينةَ الآخرةِ وما أَعَدَّ للمؤمنينَ وأهلَ ولايتِهِ في جَنَّاتِه، بِقَتْلِكُمْ إيَّاهُمْ، وإثْخَانِكُمْ في الأرضِ. يقول لهم: فاطْلُبُوا ما يريدُ اللهُ لكم ولَهُ اعْمَلُوا، لا ما تَدْعُوكم إليه أهواءُ أنفسكم من الرغبةِ في الدنيا وأسبابها. «واللهُ عزيزٌ»، يقول: إنْ أنتم أردتُم الآخرةَ، لم يَغْلبكم عَدُوٌّ لكم، لأنَّ اللهَ عزيزٌ لا يُقْهَرُ ولا يُغْلَبُ، وأنه «حكيمٌ» في تَدْبيرِه أمرَ خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لأهلِ بدرٍ الذين غَنموا وأَخَذُوا من الأسرى الفِداءَ: «لولا كِتَابٌ من اللهِ سَبَقَ»، يقول: لولا قَضَاءٌ من الله سَبَقَ لكم أهلَ بَدْرٍ في اللوحِ المحفوظ، بأنَّ الله مُحِلٌّ لكم الغنيمةَ، وأنَّ الله قَضَى فيما قَضَى أنه لا يُضِلُّ قوماً بعد إذْ هداهم حتى يُبَيِّنَ لهم ما يَتَّقُونَ، وأنه لا يعذبُ أحداً شَهِدَ المشهدَ الذي شهدتموه ببدرٍ مع رسولِ الله ﷺ ناصراً دِينَ الله ـ لَنالَكُمْ من اللهِ، بأخْذِكُم الغنيمةَ والفِداءَ، عذابٌ عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ من أهلِ بدرٍ: «فَكُلُوا»، أيها المؤمنونَ. «مِمَّا غَنِمْتُمْ»، من أموالِ المشركينَ. «حلالاً»، بإحلالِه لكم. «طيباً واتقُوا الله»، يقول: وخَافُوا الله أنْ تَعُودُوا، أنْ تفعلوا في دِينكم شيئاً بعد هذه من قَبْلِ أنْ يُعْهَد فيه إليكم، كما فعلتم في أخْذِ الفِداءِ وأكلِ الغنيمةِ، وأَخَذْتُوهُمَا مِنْ قَبْلِ أنْ يحلَّا لكم. «إنَّ الله غفور رحيم».

وهذا من المُؤخَّرِ الذي معناهُ التقديمُ، وتأويلُ الكلام: «فَكُلُوا مما غنمتم حلالاً طيباً»، «إنَّ الله غَفُورٌ رحيم»، «واتقوا الله».

ويعني بقوله: «إنَّ الله غَفُور»، لذنوبِ أهلِ الإيمانِ من عبادِه. «رحيمٌ»، بهم، أنْ يُعاقِبَهُمْ بعد تَوْبَتِهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يا أيها النبيُّ، قُلْ لِمَنْ في يديكَ وفي يدي أصحابكَ من أسرى المشركينَ الذين أُخِذَ منهم من الفداءِ ما أُخِذَ: «إنْ يَعْلَمِ اللهُ في قلوبِكم خيراً»، يقول: إنْ يَعْلَم اللهُ في قلوبكم إسلاماً. «يُؤتِكُمْ خيراً مما أُخِذَ منكم»، من الفِداءِ. «ويَغْفِرْ لكم»، يقول: ويَصْفَحْ لكم عن عقوبةِ جُرْمكم الذي اجْترمْتُموه بقتالِكم نبيَّ اللهِ وأصحابَهُ وكُفْرِكُم باللهِ. «واللهُ غفور»، لذنوبِ عبادِه إذا تابوا. «رحيم»، بهم، أنْ يعاقبهم عليها بعد التوبةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: وإنْ يُرِدْ هؤلاءِ الأسارى الذين في أيديكم. «خيانتكَ»، أي الغدْرَ بكَ والمكرَ والخِداعَ، بإظهارهم لكَ بالقولِ خِلافَ ما في نُفوسِهم. «فقد خَانُوا اللهَ من قَبْلُ»، يقول: فقد خالفوا أمرَ الله من قَبْلِ وقعةِ بدرٍ، وأمكنَ منهم ببدرٍ المؤمنينَ. «والله عليم»، بما يقولونَ بألسنتِهم ويُضْمِرُونه في نُفوسِهم. «حكيم»، في تدبيرهم وتدبيرِ أمورِ خَلْقِه سِواهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ. «وهاجروا»، يعني هَجَرُوا قومَهم وعشيرتَهم ودُورَهم، يعني تَركُوهُمْ وخَرَجُوا عنهم، وهَجَرَهُمْ قَومُهم وعشيرتُهم. «وجاهدوا في سبيلِ الله»، يقول: بَالَغُوا في إتعابِ نفوسِهم وإنصَابها في حربِ أعداءِ الله من الكفار. «في سبيل الله»، يقول: في دِينِ الله الذي جَعَلَهُ طريقاً إلى رحمتِه والنجاة من عَذَابه. «والذين آوَوْا ونَصَرُوا». يقول: والذينَ آووا رسولَ الله والمهاجرينَ معه، يعني: أنهم جَعَلُوا لهم مأوًى يأوونَ إليه، وهو المثوى والمسكن، يقول: أسْكَنُوهم، وجَعَلُوا لهم من منازلهم مساكنَ إذْ أخرجهم قَوْمُهم من منازلِهم. «ونَصَرُوا»، يقول: ونَصَرُوهُمْ على أعدائِهم وأعداءِ اللهِ من المشركينَ. «أولئكَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ»، يقول: هاتانِ الفرقتانِ، يعني المهاجرينَ والأنصارُ، بَعْضُهم أنصارُ بعضٍ، وأعوانٌ على مَنْ سِواهم من المشركينَ، وأيديهم واحدةٌ على مَنْ كَفَرَ بالله، وبعضُهم إخوانٌ لبعضٍ دونَ أقربائِهم الكفار.

وقد قيل: إنما عَنَى بذلك أنَّ بعضَهم أوْلى بميراثِ بعضٍ، وأنَّ الله ورَّثَ

الأنفال: ٧٢
بعضَهم من بعض بالهجرةِ والنُّصْرَةِ، دونَ القرابةِ والأرحام، وأنَّ الله نسخَ ذلك بَعْدُ بقوله: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾، [الأنفال: ٧٥ والأحزاب: ٦].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «والذين آمنوا»، الذين صَدَّقُوا باللهِ ورسولِه. «ولم يُهَاجِرُوا»، قَوْمَهُمْ الكفار، ولم يُفارِقُوا دارَ الكُفْرِ إلى دارِ الإسلام. «ما لكم»، أيها المؤمنونَ باللهِ ورسولِه، المهاجرونَ قومَهُم المشركينَ وأرضَ الحرب. «مِنْ وَلَايَتِهم»، يعني: من نُصْرَتِهم وميراثِهم.

«مِنْ شيءٍ حتى يُهَاجِرُوا»، قومَهم ودُورَهُم، من دارِ الحربِ إلى دارِ الإسلام. «وإنِ استنصروكم في الدِّينِ»، يقول: إنِ اسْتَنْصَرَكُمْ هؤلاءِ الذينَ آمنوا ولم يهاجروا. «في الدِّينِ»، يعني: بأنهم من أهلِ دِينكم على أعدائِكم وأعدائِهم من المشركينَ. «فعليكُمُ»، أيها المؤمنونَ من المهاجرينَ والأنصار، «النصرُ» «إلَّا» أنْ يستنصروكم. «على قومٍ بَيْنَكُمْ وبينَهُم مِيثاقٌ»، يعني: عَهْدٌ قد وثَّقَ به بعضكم على بعض أنْ لا يُحارِبَهُ. «واللهُ بما تعملونَ بصير»، يقول: واللهُ بما تعملونَ فيما أَمَرَكُم ونَهَاكُم من ولايةِ بعضِكم بعضاً، أيها المهاجرونَ والأنصار، وتركِ ولايةِ مَنْ آمَنَ ولم يُهَاجِرْ ونُصْرَتِكم إياهم عند استنصارِكم في الدين، وغير ذلكَ من فرائضِ الله التي فَرَضَها عليكم. «بصيرٌ»، يَرَاهُ ويُبْصِرُه، فلا يَخْفَى عليه من ذلكَ ولا مِنْ غيرِه شيءٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ۝٧٣﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: «والـذين كفـروا»، بالله ورسوله. «بعضُهم أولياءُ بعضٍ»، يقول: بَعْضُهم أعوانُ بعضٍ وأنصاره، وأحَقُّ به من المؤمنينَ بالله ورسوله.

وأمـا قولـه: «إلَّا تَفْعَلُوه تَكُنْ فِتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبير»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: إلَّا تَفْعَلُوا، أيها المؤمنونَ، ما أُمِرْتُمْ به من مُوارَثةِ المهاجرينَ منكم بعضهم من بعضٍ بالهجرة، والأنصار بالإيمان، دونَ أقربائِهم من أعـرابِ المسلمينَ ودونَ الكفـار. «تَكُنْ فتنـةٌ»، يقول: يَحْدُثُ بلاءٌ في الأرضِ بسببِ ذلك. «وفسادٌ كبير»، يعني: ومَعَاصٍ لله.

وقال آخرون: معنى ذلك: إلَّا تَناصَرُوا، أيها المؤمنونَ، في الدين، تكن فِتْنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبير.

إنَّ أوْلى التأويلين بقوله: «إلَّا تفعلوه تكن فِتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبير»، تأويلُ مَنْ قال: إلَّا تَفْعَلُوا ما أَمَرْتُكم به من التعاونِ والنُّصْرَةِ على الدِّينِ، تَكُنْ فِتنةٌ في الأرض إذْ كان مُبْتَدأُ الآيةِ من قولِهِ: «إنَّ الذين آمنوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا بأموالهم وأنفسِهم في سبيل الله»، بالحَثِّ على الموالاةِ على الدِّينِ والتناصُرِ جاء، فكذلك الواجبُ أنْ تكونَ خَاتمتُهَا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ

﴿كَرِيمٌ ۝٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «والذينَ آمَنُوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا في سبيلِ الله والذين آوَوْا ونَصَرُوا»، آوَوْا رسولَ اللهِ ﷺ والمهاجرينَ معه ونَصَرُوهم، ونَصَرُوا دِينَ الله، أولئـكَ هُم أهلُ الإيمانِ باللهِ ورسولِه حقًّا، لا مَنْ آمَنَ ولم يُهاجِرْ دارَ الشركِ، وأقامَ بينَ أَظْهُرِ أهلِ الشركِ، ولم يَغْزُ مع المسلمينَ عدوهم. «لهم مغفـرةٌ»، يقـول: لهم سترٌ من اللهِ على ذُنوبِهم، بعفوِه لهم عنها. «ورِزْقٌ كريمٌ»، يقول: لهم في الجنة مطعمٌ ومشربٌ هنيٌّ كريم، لا يتغيرُ في أجوافِهم فيصير نَجْواً، ولكنه يصيرُ رَشْحاً كَرَشْحِ المسك.

وهذه الآية تُنْبِئُ عن صِحَّةِ ما قُلْنَا: أنَّ معنى قولِ الله: «بعضُهم أولياء بعض» في هذه الآية، وقوله: «ما لكم مِنْ وَلَايتهم من شيء»، إنما هو النُّصْرَةُ والمعـونَةُ، دونَ الميراث. لأنه جَلَّ ثناؤُهُ عَقَّبَ ذلك بالثناءِ على المهاجرينَ والأنصارِ والخبر عَمَّا لهم عنده، دونَ مَنْ لم يهاجِرْ بقوله: «والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيلِ الله والذينَ آوَوْا ونَصَرُوا»، الآية، ولو كان مُراداً بالآياتِ قبل ذلك، الدلالةُ على حُكْمِ ميراثهم، لم يكن عَقِيبَ ذلك إلَّا الحثَّ على إمضاءِ الميراثِ على ما أمر. وفي صِحَّةِ ذلك كذلك، الدليلُ الواضحُ على أنْ لا ناسخَ في هذه الآياتِ لشيءٍ، ولا منسوخ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «والذين آمَنُوا»، باللهِ ورسولِه، بعدَ تبياني ما بَيَّنْتُ من ولايةِ المهاجرينَ والأنصارِ بعضهم بعضاً، وانقطاع وَلَايتهم مِمَّنْ آمن ولم يهاجِرْ حتى يُهاجِرَ. «وهاجروا»، دارَ الكُفْرِ إلى دارِ الإسلام. «وجاهدوا معكم»، أيها

المؤمنون. «فأولئك منكم»، في الولايةِ، يجبُ عليكم لهم من الحَقِّ والنُصْرَةِ في الدِّينِ والموارثَةِ، مِثْلُ الذي يجبُ لكم عليهم، ولبعضِكم على بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والمُتَناسِبُونَ بالأرحام. «بعضُهم أوْلى ببعضٍ»، في الميراث، إذا كانوا مِمَّنْ قَسَمَ اللهُ له منه نَصِيباً وحظًّا، من الحليفِ والولي. «في كتابِ الله»، يقول: في حُكْمِ الله الذي كتبه في اللوح المحفوظِ والسابقِ من القضاء. «إنَّ اللهَ بكلِّ شيءٍ عليم»، يقول: إنَّ اللهَ عَالِمٌ بما يصلحُ عبادَهُ، في توريثِهِ بعضَهم من بعضٍ في القرابة والنسب، دونَ الحلفِ بالعقدِ، وبغيرِ ذلك من الأمورِ كلها، لا يَخْفَى عليه شيءٌ منها.